جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

السِّمَاتُ البَلاغِيَّةُ للتَّشبِيه المُركَّب فِي شِعْر الخلِيفَةِ المُغَنِّي إِبراهِيم بن المهْدِيّ

إعداد

د / علي محمود عباس موسى الصالح
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الأول٠٠٠أبريل)
(الجزء الثاني (١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة(ISSN)2536-9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

السِّمَاتُ البَلاغِيَّةُ للتَّشبِيه المُركَّب فِي شِعْر الخلِيفَةِ المُغَنِّي إبراهِيم بن المهْدِيّ

عَلِي مَحْمود عبَّاس مُوسَى
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، قنا، مصر.

البريد الالكتروني: *Alimussa. 4119@azhar. edu. eg*

الملخص:

المعلوم أنَّ لكلّ صاحب بيان قوالبه الخاصَّة التي يستطيع أن ينقل فيها تجاربه الذَّاتية، ويصوِّر فيها أحاسيسه وانفعالاته، ويجسِّد بها كذلك خَيالاته، حتَّى تستحيل واقعًا مَلموسا، وقد تحسُن هذه القوالب مع مُبين، ولا تحْسُن هي ذاتها مَع مُبين آخر. فقد جاءت هذه الدِّراسة: (**السِّمَاتُ البَلاغِيَّةُ للتَّشبِيه المُركَّب فِي شِعْر الخلِيفَةِ المُغَنِّي إبراهِيم بن المهْدِيّ)** لتبين للنَّاظر صنعة الخليفة المُغنِّي:(**إبراهيم بن المهدي**) في ذلك، وطريقته الخاصَّة في بناء تشبيهاته المُركبّة مِن بين صُور التَّشبيه كلّها. ذلك لأنَّ التشبيه والاعتراض، الَّذي أشار إليه ابن جني، ملمحان أُسلوبيان عنده، يبني عليهما الشَّاعر كثيرا مِن معانيه، وتفرُّس بيان الشَّاعر خَير دلِيل علَى ذلك. ولا شكَّ أنَّ إيثار فنّ مُعين مِن فُنون البلاغة لوضع المعاني فيها لا يأتي إلا قصدا ليترجم كلّ ما في عقل صاحبه وفؤاده كما أحسَّه وانفعل به، فترى البليغ الذي يُحسن تشكيل بيانه ويعرف مواقع الكلمات في ذاك البناء اللغويّ يختار مِن الصُّور والأساليب أنسبها وأوقعها وأشكلها. وقد وقفت هذه الدِّراسة على عدة سِمات للتشبيه المركَّب بعد أن اسْتنطق التحليل جميع الشَّواهد الشِّعرية للشَّاعر، وهي كالآتي: الأولى: بِناء التَّشبيه المُرَكَّب على التتابُع. الثَّانية: بِناء مَعْنى صُورة المُشبَّه به مِن أحداث ماضية. الثالثة: تجْسِيد المعْنَويات، ووضْعها في مَوضِع المثَل. الرَّابعة: الجمع بين المتباينات. الخامسة: التَّقرير والتَّثبيت، ببناء صُورة المُشبَّه به بعد لَفظ (كذاك أو كذلك) فترى

التشبيه فيها يعْرض لك المَعاني في ثوب مِن البيان طريف؛ إذ يبدو حال الشاعر فيها حال مَن يقُصّ عليك قصَّة قصيرة أو حكاية سَريعة، في نهايتها يأتي المشبه به فيكتمل بِناء ما بدأه على أحسَن ما يكون البِناء، ويظهر المُشبَّه به فجأة، وكأنَّه عرَض له مِن دون قَصْد أو تعمُّد، وفي هذه الطريقة إبانة فيها سِحْر وسلاسة وإقناع.

كلمات مفتاحية: السّمات البلاغية، إبراهيم بن المهدي، التشبيه المركب، التتابُع، الجمع بين المُتباينات.

The Rhetorical Features of the Compound Simile in the Poetry of the Caliph Ibrahim Bin Al-Mahdi

Ali Mahmoud Abbas Musa
Rhetoric and Criticism Department, College of Islamic and Arabic Studies for Boys, Qena, Al-Azhar University, Egypt.
Email: Alimussa. 4119@azhar. edu. eg

Abstract :

It is well known that each author of a statement has his own templates in which he can convey his personal experiences, depict his feelings and emotions, and also embody his fantasies with them, until they become a tangible reality.

This study came: (The rhetorical features of the complex analogy in the poetry of the Caliph Al-Mughni Ibrahim bin Al-Mahdi) to show the viewer the craft of the singer Caliph: (Ibrahim bin Al-Mahdi) in that, and his special way of building his complex analogies from among all the images of analogy. This is because simile and objection, which Ibn Jinni referred to, are two stylistic features for him, upon which the poet builds many of his meanings, and staring at the poet's statement is the best evidence for that. There is no doubt that preferring a certain art of rhetoric to put meanings in it does not come except with the intention of translating everything in the mind and heart of its owner as he felt it and was affected by it. This study stood on several features of the compound analogy after the analysis questioned all the poetic evidences of the poet, which are as follows: The first: the construction of the compound analogy on the sequence. The second: constructing the meaning of the image of the suspect from past events. The third: the embodiment of morale, and put it in the position of proverbs. Fourth: combining contrasts. Fifth: Confirmation and affirmation, by building the image of the similitude after the word (such or such), so you see the similitude in it presenting to you the meanings in a guise of amusing clarification; For the poet's condition seems to be like that of someone who tells you a short story or a quick story, at the end of which the likeness of him comes and completes the construction of what he started in the best way possible, and the likened one appears suddenly, as if he had been shown to him without intention or premeditation, and in this way a manifestation of magic Smooth and convincing.

keywords: *The rhetorical features - Ibrahim bin Al-Mahdi - the compound analogy - the sequence - the combination of the disparate.*

" التَّشبِيهَاتُ الَّتي تَصُوغُها نَفْسٌ شَاعِرةٌ بِمَعْنَاها، لَهَا دَلَائِلُ لَا تُخطِئُها العَينُ الَّتي تَمَرَّسَتْ عَلَى النَّظَرِ فِي أَسْرَارِ الأَسَالِيبِ "

د محمد أبو موسى: التصوير البياني ص ٤٦ .

بسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

مُقَدِّمَــة البَحْث

الحَمدُ لله الذي هُو علـى كـلّ شَـيء قـدير، وبالإجابـة لطلـب العـون جـدير، سُبحانك ربِّي ما مِن شَيء إلا لسُلطانك خاضِع، ولرَحمتك طامِع.

أَسألُك . جلَّ شأنك وعزَّ سُلطانك – بأسْمائك الحُسْنى أن تُعطي وتُحسِن، وتقبل وتجزل، وتصفح وترضَى، عنِّي وعن والِديّ، وعن كلّ مَن أسْدى إليّ مَعروفًا، اللهم آمين . .

أمَّا بـــــعد :

فإنَّ لكلّ صاحب بيان سمات بيانية تميّزه عن غيره من بَني البَشر طُرًّا، وهي أجلّ ما ينبغي أن تكون موضع عناية الدَّارس المُتكشِّف لأسرار البيان، فتلك السّمات أبرز ما تفصح عن طرائق صاحبها وأكشف، وهي أجدر . دون غيرها – على تبيان آلياته البيانية ووسائله البلاغية، وأدلّ، وهي كذلك أصدق على اختبار مدَى تمكُّنه مِن البيان، وأقدر.

فلكلّ صاحب بيان قوالبه الخاصَّة التي يستطيع أن ينقل فيها تجاربه الذَّاتية، ويصوِّر فيها أحاسيسه وانفعالاته، ويجسِّد بها كذلك خَيالاته، حتَّى تستحيل واقعًا مَلموسا، وقد تحسُن هذه القوالب مع مُبين، ولا تحْسُن هي ذاتها مَع مُبين آخر.

هذا، ولكُلّ طريق مِن طُرُق البيان قوالب تناسبُها، يحسُن بصاحب البيان أن ينتقيها ليُحسِن إفراغ ما في عقله وفؤاده فيها، فصاحب البيان الجيِّد إنْ أجاد انتقاء قوالبه عُدّ بيانه حَسَنًا، والعكس صَواب.

فحاجة المُبين إلى التَّشبيه المُركَّب خاصَّة قد تكون في بعض الأحيان ماسَّة؛ لأنَّ التشبيه المُركَّب يعين صاحبه على استفراغ ما في نفسِه مِن مشاعر وأحاسِيس؛ لأنَّه يستقصي أحوال المعنى، ومِن ثَمَّ رأينا في كل بيان تنوُّع صُور التَّشبيه بوجه عام، وتنوُّعها بين الإفراد والتركيب بوجه خاصّ، ومن ثمَّ فقد قرَّ في عقولنا أنَّ استدعاء

صاحب البيان لصُورة دُون أخرى، وقالب دون آخر، ونمط دون نمط، هو أمر مقصود حتَّى يبلغ صاحب البيان غايته ومقصوده .

فاستدعاء فنّ مُعين مِن فُنون البلاغة يأتي قصدا ليترجم كلّ ما في عقل صاحبه وفؤاده كما أحسَّه وانفعل به، فترى البليغ الذي يُحسن تشكيل بيانه ويعرف مواقع الكلمات في ذاك البناء اللغويّ يختار مِن الصُّور والأساليب أنسبها وأوقعها وأشكلها.

وفي هذه الدِّراسة التي جاءت بعنوان: (**السِّمَاتُ البَلاغِيَّةُ للتَّشبِيه المُركَّب فِي شِعْر الخَلِيفَةِ المُغَنِّي إبراهِيم بن المهْدِيّ**) نحاول الوقوف على مظاهر تركيب التَّشبيه عنده، حتَّى تتجلَّى للنَّاظر صنعة الخليفة المُغنِّي :(**إبراهيم بن المهديّ**) في ذلك، وطريقته في بناء تشبيهاته المُركبّة مِن بين صُور التشبيه كلّها.

هذا، وسوف يَسْتنطق التحليل لجميع مُكونات هذا البيان جميع الشَّواهد الشِّعرية للشَّاعر مِن خِلال المَنهج الوصفي، وذلك على النَّحو الآتي:

أولًا: قراءة ديوان شعر إبراهيم بن المهدي قراءة متأنِّية للوقوف على ما فيه مِن صور تشبيهية .

ويُمكن عدّ التَّشبيه، مَع الاعتراض، الَّذي أشار إليه ابن جني، ملمحين أُسلوبيين عنده، يبني عليهما الشَّاعر كثيرا مِن معانيه، وتفرُّس بيان الشَّاعر خَير دلِيل علَى ذلك.

ثانيًا: تمييز التَّشبيهات باعتبار الإفراد والتركيب، ثُمَّ الاقتصار على شواهد التَّشبيه المُركَّب موضع الدِّراسة، وهي لكثرتها جديرة بأن تُفْرد بالدَّرس والنَّظر.

ثالثًا: الوقوف ابتداء على السِّمات البلاغيَّة لتلك التَّشبيهات مِن خلال استنطاق تلك الشَّواهد.

رابعًا: وضْع الشَّواهد بإزاء هذه السِّمات، فهذه تمثِّل سمة التتابُع، وتلك تمثل التَّقرير والتَّثبيت، وهكذا.

خامسًا: تحليل تلك التَّشبيهات بِنية ودلالة، للوقوف على مواطن الجمال فيها.

هذا، وقد اشتمل هذا البحث على مُقدّمة، وتمهيد، وعدّة مباحث:

أمَّا المقدّمة فأبانت عن أهمية الموضوع، ومنهج البحث، وخطته.

وأمَّا التَّمهيد فقد ألمحت فيه هذه الدِّراسة إلى مفْهوم التَّشبيه المُركَّب، وقيمته البلاغيَّة، ثمَّ التعريف المُوجز بالخليفة الشَّاعر: (**إبراهيم بن المهديّ**) .

وأمَّا مباحِث الدِّراسة فقد بُنيت على السِّمات البلاغية للتَّشبيه المركب؛ إذ كانت كلّ سمة مِن سمات التشبيه المركَّب البلاغية مبْحثا مِن مباحِث الدِّراسة، وذلك على النَّحو الآتي:

المبحث الأول: بِناء التَّشبيه المُرَكَّب على التتابُع .

المبْحث الثَّاني: بِناء مَعْنى صُورة المُشبَّه به مِن أحداث ماضية.

المبحث الثالث: وضْع التشبيهات في مَوضِع المثَل.

المبحث الرَّابع: الجمع بين المتباينات.

المبحث الخامس: التَّقرير والتَّثبيت، ببناء صُورة المُشبَّه به بعد لَفظ (كذاك أو كذلك).

وأمَّا الخاتمة: ففيها أبرز النتائج.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١).

(١) سورة آل عمران: آية ٨.

التَّمهِيد

أولاً: التَّشبِيه المُركَّب وقيمته البَلاغيَّة

تتنوَّع طرائق الشُّعراء في انتقاء صُور التَّشبيه، لكن يظل التَّشبيه المُركَّب مِن أرفع صُور التَّشبيهات وأدقّها وأزخرها بالأسرار واللمحات، وهو كذلك مِن بين صُور التشبيهات جملة محطّ عناية المُتفرِّس للبيان الفصيح؛ إذ تتضاعف عندها لذة الشعور بما في الشِّعر من معان وأسرار، مع أنَّها – على طول صبر النَّاظر وبالغ كدِّه – لا تبوح له بكل ما أودعه صاحبها فيها، حتَّى تستولي مِنه علَى كلّ مراكز الإدراك والشُّعور؛ ذلك لأنَّ " الأصْل في التركيب أن يعتبر الشَّاعر أكثر مِن شيء في تكوين الصُّورة " [١] ومن ثَمَّ فإنَّ هذا الباب " معْقود على هذا التَّشابُك، ولا يحسُن إلا به، ولا يُذاق إلا في إطاره ، لأنَّ هذه صنعته التي بها لُطْف مأخذه ودِقَّة نَظر واضعه"[٢]

وقف الزَّمخشري – رَحِمَه الله – على حَدّ التَّشبيه المُركَّب فقال: " . . بيانه: أنّ العرب تأخذ أشياء فرادى، معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك، فتشبهها بنظائرها، . . . وتشبه كيفية حاصلة مِن مجموع أشياء قد تضامّت وتلاصقت حتَّى عادت شيئا واحدا، بأخرى مثلها " [٣]

فالتشبيهات المُركَّبة تحتاج إلى فرط تأمُّل حتَّى تقف النَّفس اليقظة على تلك الأسرار واللمحات والإيماءات التي أودعها فيها صاحبها، بغية إدراك ما بين طرفيها

---

(١) التصوير البياني . دراسة تحليلية لمسائل البيان د محمد محمد أبو موسى ص ٨٠ ط: مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة السادسة . ٢٠٠٦ م .

(٢) التصوير البياني ص ٨١ .

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزَّمخشرى ١ / ٨٠ . ط: دار الكتاب العربي . بيروت . ١٤٠٧ هـ.

مِن تلاقٍ وتشابه وتماثل ؛ لأنَّك " لا تستطيع أن تنزع منها الشبه – أعني المغزى وما يدور حوله أو وجه الشَّبه بمدلوله الدَّقيق – إلا إذا انضم فيها شيء إلى شيء"(١)

هذا، ويتحقَّق في جُلّ التَّشبيهات المُركَّبة أو كلّها، الكثير مِن أُسس جَودَة التَّشبيه التي أشار إليها علماؤنا، كـ: (التفصيل والتحليل) مثلا الذي قد تبنى عليه تلك التَّشبيهات المركَّبة، وهو ما يجعلها دائمًا في مَرتبة خاصَّة، حين تُقارن بالتَّشبيهات المُفردة أو غيرها " فالتَّشبيهات التي تُبنى على هذا الأساس مِن النَّظر المُستقصى، وتحليل الشيء الذي يكون الشَّاعر بصدد بيانه، سواء في ذلك ما كان أوصافا لأشياء حسيَّة، أو كان تحليلا لأفكار وأحوال ومشاعر تشبيهات جيدة، وهي تفضل في سياق المُقارنة التشبيهات التي لا تتعمَّق الأشياء، ولا تتقصَّى أحوالها وأوصافها، وإنَّما تلمّ بها إلماما إجماليًا . . " (٢)

ولن نُبْعِد كثيرًا إذا عددنا (كثرة التفصيل) سِمة لازمة للتَّشبيه المُركَّب، وهذا يدلّل علَى أبلغيَّته، وأنَّه مِن الحُسْن والبلاغة بمكان، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني – رَحِمه الله رحْمة واسعة –: " وممَّا يكثر فيه التَّفصيل ويقوَى معناه فيه، ما كان مِن التشبيه مركَّبا مِن شيئين أو أكثر " (٣)

ففضْل هذا اللون مِن التَّشبيه راجع ابتداء إلى هذه السِّمة التي يَسْتحيل بها المُبتذَل اليسير غاية في الجَودة والإحْسان، وعلى قدر التفصيل يستدلّ على قُدرة صاحبه علَى الخيال والإبداع، وأنَّه في طبقة تجعله مِن جُملة أصحاب البيان الذين يُحدثون في نُفوس المُتلقِّين مُتعة رُوحية كبيرة.

---

(١) التصوير البياني ص ٧٣.

(٢) التصوير البياني ص ١٥٢ .

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني . قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ص ١٦٩ . ط: مطبعة المدني بالقاهرة ودار مدني بجدة.

فـ " جُملـة القول أنَّك متـى زِدت فـي التَّشبيه علـى مُراعـاة وصـف واحد أو جهـة واحدة، فقد دخلت في التفصيل والتركيب، وفتحت باب التفاضُل، ثمَّ تختلف المنازل فـي الفضْـل، بحسـب الصُّورة فـي اسـتنفادِكَ قـوَّة الاستقصـاء، أو رِضـاك بـالعَفْو دون الجَهْدِ " (١)

فهذا الضَّرب مِن التَّشبيه جَدير بالنَّظر، وهو في شِعر الخليفة المغني (إبراهيم بن المَهديّ) أجدر وأولى.

ثانياً: إطلالة يسيرة على الخليفة الشَّاعر: (إبراهيم بن المهدي)

تدور هذه الدِّراسة في شعر أحد شُعراء العصْر العباسيّ وخلفائه المُجيدين، وهو ذاك الشَّاعر الفريد المُتَّسم نظمه بحلاوة السَّبك، فهو أحد الشُّعراء الذين شُهر عنهم الغِنـاء، والغِنـاء بـلا شَـكّ يحتـاج لفظـة رَشـيقة سَـهلة، ومعْنـى كريمًـا تـأنس بـه نفُوس المُستمعين وتستعذِب.

فالشَّاعر هو: إبراهيم بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبو إسحاق، ويعرف بابن شَكْلَة (٢) ومولده غرة ذي القَعدة مِن سنة اثنتين وستين ومائة (٣)

بُويع إبراهيم بالخلافة في زَمن المأمون، فحارب الحَسن بن سهل فهزمه إبراهيم، ثمَّ أقبل لحربه حُمَيد الطوسي، فهزم جمع إبراهيم، واختفى إبراهيم زمانا إلى أن ظفر به المأمون، فعفا عنه (٤)

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٧٩.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . تح: مصطفى عبد القادر عطا ٦/ ١٤٠ . ط: دار الكتب العلمية . بيروت.

(٣) ينظر: تاريخ بغداد ٦ / ١٤١.

(٤) ينظر: سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي . تح: شعيب الأرناؤط ، و / محمد نعيم العرقسوسي . ١٠ / ٥٥٩ . ط: مؤسسة الرسالة . ط: أولى . ١٤٠٢ هـ . ١٩٨٢ م .

نَظم الشَّاعر – كما يرى المُطالع لديوانه – في جُلّ الأغراض الشِّعرية المَعروفة، و" قد كان مِن آدب النَّاس، وأشعرهم، وأبلغهم، وغلب عليه الغناء، فبرز وأعجز وسحر وبهر حتَّى ضُرِب به المثل " (١)

هذا، وقد فاضت روح الشَّاعر إلى بارئها في سنة أربع وعشرين ومائتين، يوم الجُمُعة لسبع خلون مِن شهر رمضان، وصلَّى عليه المُعتصِم بالله أمير المؤمنين(٢)

هذا، وإذا كان مفهوم السَّمت في المعاجم العربية يعني الطَّريق والمذهب، فإنَّ المراد مِن هذه الدِّراسة يتَّسق مع المفهوم اللغوي أيَّما اتِّساق، فغرض الدِّراسة الوقوف على المظاهر الرَّئيسة التي تبدَّت في طريقة بِناء الشَّاعر (إبراهيم بن المهدي) لتشبيهاته المركبة، ومِن ثَمَّ فإنَّ هذه الدِّراسة رصدت كلّ ما برز في تشبيهات الشَّاعر المركبة خاصَّة من سمات، وكثر كثرة عُرف بها وغلب بِناء المَعاني عليها .

(١) ينظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ١٣٠ . ط: المكتبة العصرية . صيدا . بيروت . ط: أولى . ١٤٢٤ هـ . ٢٠٠٣ م. .

(٢) تاريخ بغداد ٦ / ١٤١.

المبْحَث الأوَّل :

بِناء التَّشبيه المُرَكَّب على التَّتابع

يُترجِم تتابع صُور التشبيه المركَّب في البيان الفصيح بوجه عام ملَكَة صاحبها التامَّة في السَّبك، وفرْط اقتداره علَى استدعاء المعاني، وهذا يعني أنَّ المعانِي – فضْلا عن بديع نظمها – تأتيه طوعا وكرها؛ لأنَّه امتلك ناصيتها وزمامها، وأنَّه حين يستدعيها فإنَّها لا تملك إلا أن تمتثل لطلبه، كما أنَّ ذلك يرمُز إلى ثراء النَّفْس وغناها، فـ " غزارة البيان بغزارة النَّفس وثرائها وتوفُّر حِسَّها بالأشياء " (١)

ويُترجِم أيضًا تزاحُم تلك الصُّور في الموضِع الواحِد طول نفَس الشَّاعر ومدى استقصائه للمَعاني، وهذا بلا شكّ لا يكون لآحاد النَّاس، بل للخبير الذي ملك ناصية القول فحسب ولاسيَّما أنَّ الصُّور على تزاحُمها وتتابُعها تتآلف وتتلاقى؛ لأنَّها مِن رَحم واحد، فـ " لا ريب أنَّ هناك ضربًا مِن التَّشابه في تشبيهات القصيدة الواحِدة؛ لأنَّه يجري فيها ماء واحد"(٢)

هذا، ولم يَمَلّ النَّقاد – وهم أهل البصر بهذه الصِّناعة، والأعرف بها – مِن الثَّناء على الشَّاعر أو النَّاثر الذي وُهب حسًّا مكَّنه مِن إيجاد النَّظائر والأشباه المُختلفة للشَّيء الواحد، وكذا ما يكون لأحدهم مِن تقليب المَعنى على وجوه كثيرة، فقد حَكَى ابن رشيق . رحِمَه الله . مُزكِّيا ابن الرُّومي فِي قريب مِمَّا نحن فيه: " كان ابن الرُّومي ضنينًا بالمعاني، حريصًا عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولّده، فلا يزال يقلِّبه ظهرًا لبطن، ويصرفه في كلّ وجه، وإلى كلّ ناحية، حتَّى يُميته ويعلم أنَّه لا مَطمع فيه لأحد " (٣)

---

(١) التصوير البياني ص ٦٧.

(٢) التصوير البياني ص ٥٤ .

(٣) العُمْدة في محاسِن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق . تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ٢ / ٢٣٨ . ط: دار الجيل . بيروت.

كذلك يدلّ تزاحم الصُّور وتتابعها في القول الفصِيح على عُمق خيال صاحبها، وأنَّه واسِع الفكر، بعيد الخيال، بل إنَّ الشَّاعر أو النَّاثر الذي يقيد خياله فإنَّه يحرم بيانه مِن جليل الإبداع، ولو قلنا إنَّ أفضل البيان ما كان مُتخيَّلا مِن عناصِر ليست لها هيئة في الواقع لم نُبْعِد كثيرا.

هذا، وقد بدَت جليَّة سمة تزاحُم التَّشبيهات المُركَّبة في المَوضِع الواحد، عند الخليفة المُغنّي إبراهيم بن المَهديّ، في مواضع ثلاثة مِن تلك التشبيهات المركبة:

الموضع الأوَّل: عند البيت السَّادس مِن قصيدته البائية الطَّويلة، التي عدّتها ستة وأربعون بيتًا، وقد جاءت في التفجُّع، وتصوير حزنه وفرط لوعته على ولده (أحمد):

تَــوَلَّى وَأَبْقَــى بَينَنَــا طِيــبَ ذِكْــرِهِ ∴ كَبَــاقِي ضِــياءِ الشَّــمْسِ حِــينَ تَغِيــبُ

خَــلا أَنَّ ذَا يَبْلَــى وَيَفْنَــى، وَذِكْــرُهُ ∴ بِقَلبِــي عَلَــى طُــولِ الزَّمَــانِ قَشِــيبُ

كَــأَنْ لَــمْ يَكُــنْ كَالــدِّرِّ يَلْمَــعُ نُــورُهُ ∴ بِأَصْــدَافِهِ لَمّــا تَشِــنْهُ ثُقُــوبُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالغُصْنِ فِي مَيعَةِ الضُّحَى ∴ سَــقَاهُ النَّــدَى فَــاهْتَزّ وَهُــوَ رَطِيــبُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالصّقْرِ أَوْفَى بِشامِخِ الذْ ∴ ذُرَى وَهُــو يَقْظَــانُ الفُــؤادِ طَلُــوبُ

كَــأَنْ لَــمْ يَكُــنْ كــالطَّرْفِ يَمْسَــحُ سَــابِقًا ∴ سَــلِيمُ الشَّــظَى لَــمْ تَحْتَبِلْــهُ عُيُــوبُ

كَــأَنْ لَــمْ يَكُــنْ كَــالرُّمْحِ يَعْــدِلُ صَــدْرَهُ ∴ غَــدَاةَ الطِّعَــانِ لَهْــذَمُ وَكُعُــوبُ

يَفُــضُّ الحَدِيــدَ المُحكَــمَ النَّسْــجِ حَــدُّهُ ∴ وَيَبــدُو وَرَاءَ القِــرْنِ وَهُــوَ خَضِــيبُ (١)

ثمَّ عاد الشَّاعر مُجدَّدا دون مهلة طويلة إلى ذكر التَّشبيهات المُركَّبة متتابعة عند البيت السَّادس عشر مِن القصيدة عند قوله:

قَلِــيلاً مِــن الأيَّــامِ لَــمْ يَــرْوِ نَــاظِرِي ∴ بِهَــا مِنْــهُ حَتّــى أَعْلَقتــهُ شَــعُوبُ

---

(١) الأبيات من بحر الطويل. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي (الخليفة المغني) وأخباره ونثره . جمع وتحقيق ودراسة: د / محمد مصطفى أبو شوارب ص ١٠٤ . ١٠٦ . ط: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر . ط: أولى . ٢٠٠٧ م.

كَظِلِّ سَحَابٍ لَمْ يَقُمْ غَيرَ سَاعَةٍ ∴ إِلَى أَنْ أَطَاحَتْهُ فَطَاحَ جَنُوبُ
أَوِ الشَّمْسِ لَمَّا عَن غَمَامٍ تَحَسَّرَتْ ∴ مَسَاءً وَقَدْ وَلَّتْ وَحَانَ غُرُوبُ
كَأَنِّي بِهِ إِذْ كُنتُ فِي النَّومِ حَالِمٌ ∴ نفى لَذَّةَ الأَحْلامِ عَنهُ هُبُوبُ (١)

ثمَّ عاد مرة ثالثة عند البيت السَّادس والعشرين قائلا:

وَكُنْتُ بِهِ فِي النَّائِبَاتِ إِذَا عَرَتْ ∴ وَظَهْرِي مُمْتَدُّ القَنَاةِ صَلِيبُ
فَأَصْبَحْتُ مَحْنِيًّا كَئِيبًا كَأَنَّنِي ∴ عَلَيَّ لِمَنْ أَلْقَى الغَدَاةَ نُضُوبُ
بِحَالِ الَّذِي يَجْتَاحُهُ السَّيلُ بَغْتَةً ∴ فَيَفْتَقِدُ الأُذُنَينِ وَهُوَ حَرِيبُ
يُقَلِّبُ كَفَّيهِ هُنَاكَ وَقَلْبُهُ ∴ هَوَاءُ وَحِيدًا مَا لَدَيهِ غُرُوبُ
يُنَادِي بِأَسْمَاءِ الأَحِبَّةِ هَاتِفًا ∴ وَمَا فِيهِمُو لِلهَاتِفِينَ مُجِيبُ (٢)

وفي هذا الموضع الذي يصوّر فيه الشَّاعر حُزنه على فقد وليده استطاع أن ينتقي تلك العناصر – التي يكوِّن منها هذه الصُّور التشبيهيَّة البديعة التي وضَعها في القالب العَصِيّ (التَّشبيه المُركَّب) إلا على الماهر بصنعة الشِّعر الذي له قُدْرة علَى التَّركيب والجمع في تناغم وتآلف . مِن عناصر حيَّة باقية إلى يومنا هذا، فهي تتناغم مع فرط حبّه لولده، فولده لم يفْنَ بالموت، ولم يذهب بعد انتقاله مِن دار الدُّنيا إلى الدَّار الآخِرة، بل هو حَيّ باقٍ في قلبه، وقد أبقاه (طِيب ذكره)، كَما صرَّح الشَّاعر بذلك في صُورة التَّشبيه الأوَّل.

بل إنَّ الشَّاعر قد أحسن إيثار المُفردات التي تعبِّر عن انتقال ولده، فكلمة (تولَّى) ليس مِن شأنها تصوير فرط انقطاع القُرب والوصْل بالكليَّة، فـ " التَّولي قد يكون

(١) ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٠٦ ،١٠٧.
(٢) شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٠٨ ، ١٠٩.

بالجِسْم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار"[1] والتولِّي هنا بالجسم وحده، فهو أدلّ على بقاء القرْب المعنوي في النَّفس والفؤاد كما هو، وفي تتابع حذف المُسند إليه: (تَوَلَّى وَأَبْقَى بَينَنَا طِيبَ ذِكْرِهِ) دليل على أنَّه حاضر بالبال والفؤاد ولا يخطر على النَّفس سواه، وهذا يتلاقى مع مقصود الشَّاعر أيَّما تلاق.

فمَنْ يتأمَّل تلك العناصِر التي شكَّلت تشبيهاته في هذا الموضع: (ضياء الشمس، تغيب، الدر، يلمع نوره، أصدافه، الغصن، سقاه الندى، فاهتزَّ، رطيب، الصّقر، الطرف، سليم الشَّظى، الرُّمح، الحديد، السَّحاب، الشَّمس، محنيا، يجتاحه السَّيل، الأذنين، يقلب كفيه، .....، إلى آخر تلك العناصر) يجد أنَّ أكثرها محسوس مشاهد؛ إذ هي مِن عناصر الطَّبيعة التي يطلع عليها بنو البشر طُرًّا، وهذا مِن شأنه أن يكتب لتشبيهاته الخلود الأبَديّ مَهْما تباعدت الأزمان.

ففي التَّشبيه الأوَّل عند قوله:

تَـوَلَّى وَأَبْقَـى بَينَنَـا طِيـبَ ذِكْـرِهِ ∴ كَبَـاقِي ضِـياءِ الشَّـمْسِ حِـينَ تَغِيـبُ

يعقِد الشَّاعر مِن خلال التَّشبيه المُركَّب مُوازنة بين حال ولده (المُشبَّه) وهيئة ما تبقى مِن ضياء الشَّمس عند المَغيب (المُشبَّه به) يخلص فيها إلى أفضلية ولده، فالمشبَّه هنا هو: الحال الحاصِلة لغياب ولده جسَدا وبقائه ذكرا حَسَنا، بالهيئة الحاصلة لغياب جُلّ ضياء الشَّمس وبقاء بعضه قُرب المَغيب، والجامع بين الصورتين: الهيئة الحاصلة لغياب جزء الشَّيء وبقاء بعضه، والغرض مِن التشبيه بيان الإمكان.

لكن الشَّاعر أتبع الصُّورة التشبيهيَّة بقوله:

خَـلا أَنَّ ذَا يَبْلَـى وَيَفْنَـى، وَذِكْـرُهُ ∴ بِقَلبِـي عَلَـى طُـولِ الزَّمَـانِ قَشِـيبُ

---

(١) مُفردَات ألفاظ القرآن للراغِب الأصْفهاني . تحقيق: صفوان عدنان داوودي ص ٨٨٦ . مادة (ولي) . ط: دار القلم بدمشق ، والدَّار الشَّامية ببيروت . ط: رابعة . ١٤٣٠ هـ . ٢٠٠٩م.

وفيه يُبرز فضل المُشبَّه على المُشبَّه به، فضياء الشَّمس يستحيل إلى فناء تام عند اكتمال المغيب، أمَّا ولده فذكره بقلبه يتجدَّد، وإنْ طال الزَّمان.

وفي استحضار المُشار إليه، وهو باقي ضياء الشَّمس: (خَلا أَنَّ ذَا يَبْلَى وَيَفْنَى) مِن شأنه إثبات أنَّ الكامن بالقلب أبقى وأخلد مِن مثل هذا المحْسوس الذي تدركونه جليًّا بأبصاركم، ففي استِحْضار المُشَار إليه حَثّ المُتلقِّي على فرْط التأمُّل في حقيقته؛ لأنَّ الشَّاعر يعتقد صِدق دعواه.

ثمَّ راح الشَّاعر يتبع هذا المعْنى بعدَّة تشبيهات، كلّها في تحسين حال المُشبَّه وتزيينه، وذلك عند قوله في الأبيات التالية:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالدّرِّ يَلْمَعُ نُورُهُ ∴ بِأصْدَافِهِ لَمّا تَشِنْهُ ثُقُوبُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالغُصْنِ فِي مَيعَةِ الضُّحَى ∴ سَقَاهُ النَّدَى فَاهْتزّ وَهوَ رَطِيبُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالصّقْرِ أَوْفَى بِشامِخِ الذْ ∴ ذُرَى وَهُو يَقْظَانُ الفُؤادِ طَلُوبُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كالطِّرْفِ يَمْسَحُ سَابِقًا ∴ سَلِيمُ الشَّظَى لَمْ تَحْتَبِلْهُ عُيُوبُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالرُّمْحِ يَعْدِلُ صَدْرَهُ ∴ غَدَاةَ الطِّعَانِ لَهْذَمُ وَكُعُوبُ

يَفُضُّ الحَدِيدَ المُحكَمَ النَّسْجِ حَدُّهُ ∴ وَيَبْدُو وَرَاءَ القِرْنِ وَهُوَ خَضِيبُ

وأوَّل ما يبْدو للمتلقِّي هنا تكرار كلمة: (كَأَنْ لَمْ يَكُنْ) وهي كلمة فيها تحَسُّر شديد على فقد وليده، الذي صار أثرًا بعد عين، وتكرارها يُترجم ذلك في صُورة لا تُخطئها عَين، مع ما في التّكرار مِن " إظهار نزْعة المَيل إلى التَّقريب بين ابنه وبين عناصِر الطَّبيعة التي يراها ويبْصرها النَّاس جميعا؛ حتَّى يشاركوه في التحَسُّر واللوعة على فقْد ابنه " [1] فقد كان " الباعث النَّفسيّ وراء تكرار ألفاظ وتراكيب بعينها " [2]

(١) السَّبك النصي بالتكرار في شعر الخليفة إبراهيم بن المهدي (ت ٢٢٤) . البائية في رثاء ابنه نموذجا . أد / سلامة دردير محمد علي ص ٤٣٤٧ . حولية كلية اللغة العربية بجرجا . العدد: الثاني والعشرون . الجزء: الخامس . ٢٠١٨ م.

(٢) السَّبك النصي بالتكرار في شعر الخليفة إبراهيم بن المهدي ص ٤٣٣٠.

وفي ظنِّي أنَّ التَّكرار هنا فيه – مع ما ذُكِر . تبيان أنَّ عناصر هذه الطَّبيعة التي شكَّلت لبِنات صُور المُشبَّهات به سَتظل تشي بخلوده ما بقيت شاخصة أمامه؛ ذلك لأنَّ الشَّاعر . كما يبدو لي . يودّ أن يبُث فكرة خلود ولده في قلبه في ثنايا قصيدته، وهذا مِن شدَّة الوَجْد، وبالغ الشَّوق الذي يجده في نفسه.

إنَّ هذا التَّكرار يحكِي كذلك ثقل الفقد على نفْس هذا الوالد الذي فقَد وليده بين عشيَّة وضُحاها حتَّى جعلها حسيرة والهة، لا ترى غيره ولا تنظر سواه، فكلّ ما في الطبيعة مِن صائت وصامِت قد تجسَّد في صورته هو، فهو الدرّ والغصن والصَّقر والطَّرف والرُّمح و . . فانتقاء هذه العناصِر المَحْسوسة مِن الشَّاعر إيحاء إلى معْنى الخلُود والبقاء، فالشَّاعر تأبى نفسه إلا الإيمان بهذا المعنى، فطيب ذكر ولده بين النَّاس، وبين ضلوعه هو، حاضر لم يغب، وهذا مِن فرْط لَوعته وبالغ حَسْرته، وفي ذلك أيضًا سَلْوى له، وتسرية لتلك النَّفس التي تتجرَّع مرارة الفقْد، وأي مرارة هي ؟!!

وفي التَّكرار أيضا إيحاء إلى حال الولَه والوهَن النَّفسيّ الذي يصيب النَّفس حين تُصاب بفقد حبيب، فيجعلها – من دون أن تدري – تردّد بعض الكلمات التي يكون فيها متنفس عمَّا تجد، فمَطلع القصيدة:

نَـأَى آخِـرَ الأَيَّـامِ عَنْـكَ حَبيـبُ ∴ فَلِلعَـينِ سَـحٌّ دَائِـمٌ وَغُـرُوبُ

" يُبرز أثر فاجعة الفقد على نفْس الشَّاعر وقلبه، كما يُظهر تحبُّبه لولده، والإعلان عن شدَّة تعلّق قلبه به"[1] أعان الله كلّ مَن ابتُلي بفقد حبيب على تحمُّل ذلك .

ففي قوله:

كَـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ كَالـدّرِّ يَلْمَـعُ نُـورُهُ ∴ بِأصْـدَافِهِ لَمّـا تَشِـنْهُ ثُقُـوبُ [2]

---

(١) السَّبك النصي بالتكرار في شعر الخليفة إبراهيم بن المهدي ص ٤٣٣١.

(٢) الشين: العيب. ينظر لسان العرب . مادة (شين). أصداف: جمع صدفة ، وهي غشاء الدُّرّ. ينظر: المعجم الوسيط . مادة (صدف).

يُشبِّه الهيئة الحاصِلة لولده بهيئة الدُّر اللامع المُثقَّب الذي كانت ثقوبه أحد أسباب حسنه وجماله، والجامع الهيئة الحاصِلة لتكامُل الضِّياء في كلّ، فكلمة:(لَمّا تَشِنْهُ ثُقُوبُ) أفادتْ أنَّ ثقوب الدرّ وصف كمال واستحسان، لا وصف نقص واستهجان؛ ذلك لأنَّ حُصول لمْع الدرّ مرهون بما فيه مِن ثقوب على الأصداف، حتَّى ينْفذ مِن خلالها الضياء واللمعان، فوصف الدُّر بأنَّه مُثقَّب وصف كمال، يقال: " كوكب ثاقب ودرِّيء: شديد الإضاءة والتلألؤ، كأنَّه يثقب الظُّلمة، فينفذ فيها ويدرؤها"(١)

وفي قوله:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالغُصْنِ فِي مَيعَةِ الضُّحَى ∴ سَقَاهُ النَّدَى فَاهْتزّ وَهُوَ رَطِيبُ (٢)

يشبِّه الهَيئة الحَاصِلة لولده بِهيئة الغُصْن الرَّطيب الذي بلَّله النَّدى في وقْت الضُّحى، فأحدث فيه نشوة واهتزازا مِن فرْط إعجابه بحُسْنه وجَماله.

ويُروى البيت (زَهَاهُ النَّدَى) (٣) مكان: (سقاه النَّدى) وهو أبلغ في تصوير حال حسن الغُصن إذ فيه التَّصريح بالنَّضارة والتِّيه والعُجْب، وهو – كما ترى – يخلع كذلك على الغصْن شيئا من أوصاف العُقلاء.

هذا، ومِن حُسْن التشبيه أنَّ الشَّاعر صوَّر فيه اهتزاز الغصن: (فَاهْتزّ وَهُوَ رَطِيبُ) فنقل ببديع حِسِّه للمُتلقِّي حرَكة اهتزازه التي بدَت عليه تيها وفخرا بالحُسْن والنَّضارة، ف–. " وصف الحرَكة . كما يقول البلاغِيون . مِن بديع التَّشبيهات وجليلها؛ لأنَّ التقاطها وهي جادة في حرَكتها واضطرابها دليل المَقدرة والوعْي وقوَّة المُلاحظة"(٤)

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري . مادة (ثقب).

(٢) ميعة الشيء أوله. ينظر: المعجم الوسيط . مادة (ماع)

(٣) ينظر: أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي . نشره: ج. هيورث. دن . ص ٤٤ . مطبعة الصاوي . ط: أولى . ١٣٥٥ هـ . ١٩٣٦ م.
زهاه: الزَّهْوُ الكِبْرُ والتِّيهُ والفَخْرُ والعَظَمَةُ. ينظر: اللسان . مادة (زها).

(٤) التصوير البياني ص ٦٦.

وقوله: (وَهُوَ رَطِيبُ) يُترجِم هُنا كمَال اهتزاز الغُصْن حتَّى كأنَّه يتراقَص، وهذا مِن بالغ حُسْنه وجماله، فالغُصْن الجَاف . كما يبدو لي . اهتزازه ناقِص بسبب جفافه ويُبوسته إذ الغُصن يسْتمد حركته مِن رُطُوبته.

وفي قوله:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالصّقْرِ أَوْفَى بِشامِخِ الذْ ∴ ذُرَى وَهُـو يَقْظَـانُ الفُـؤادِ طَلُـوبُ (١)

يذهب نحو وصْف ولده بفرط الجرأة والشَّجاعة والإقدام على المسالك الدقيقة التي يحجم عنها غيره لشدة وعورتها، فيشبِّه الهَيئة الحَاصِلة لولده بالهيئة الحاصلة للصَّقر الذي يُشْرف على ذروة الأماكن العالية في يقظَة وهمَّة عالية.

فقوله: (وَهُو يَقْظَانُ الفُؤادِ طَلُوبُ) تعدَّد فيه المُسند لواحد، والغرض المُبالغة، والجملة حالية " من جوهر بناء الجملة وعليها يتوقف معناها " (٢) فانتزاعها مِن المُشبَّه به يُفقد التَّشبيه بهاءه، ولا يتحقَّق مِن دونها مُراد الشَّاعر مِن تصوير ما يتَّسم به فقيده مِن بالغ الجرأة في الإشراف على المعالي دون غفلة أو تراخ.

وفي قوله:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كالطِّرْفِ يَمْسَحُ سَابِقًا ∴ سَـلِيمُ الشَّـظَى لَـمْ تَحْتَبِلْـهُ عُيُـوبُ (٣)

---

(١) أَوْفَيْتُ المكان أَتيته . . وأَوْفَى على الشيء: أَي أَشْرَفَ. ينظر: لسان العرب . مادة (وفي).
شامخ الذرى: ذِرْوَةُ كلِّ شَيءٍ وذُرْوَتُه أَعْلاهُ ، والجَمْع الذُّرَى بالضم . ينظر: لسان العرب . مادة (ذرا).

(٢) قراءة في الأدب القديم د محمد محمد أبو موسى ص ٣٦ ط: مكتبة وهبة . القاهرة . ط: الرابعة . ١٤٣٣هـ . ٢٠١٢ م.

(٣) الطرف بالكسر من الخيل: الكريمُ العَتِيقُ ، وقيل: هو الطويل القوائم والعُنُق المُطَرَّفُ الأُذنينِ . . وقال الليث: الطِّرْفُ: الفَرَسُ الكريمُ الأَطرافِ يعني الآباء والأُمّهات . ينظر: لسان العرب ـ مادة (طرف).
الشظى: عظم لاصق بالذراع ، فإذا تحرَّك قيل شظى الفرس. ينظر: المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة الدينوري ١ / ١٥١ . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٠٥ هـ . ١٩٨٤ م.
←←←

يَسترسل في الحديث عن وصف فقيده بالجرأة والإقدام والثبات، فيشبِّه الهَيئة الحَاصِلة لولده بهيئة الفرس الكريم السابق الذي بلغ الغاية في الكمَال، والخلو مِن العُيوب. فبين هذا التَّشبيه وما سبقه تلاق واضح.

وقوله: (يَمْسَح سابقًا) الصَّواب . كما يبدو لي . بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله، وهو كناية عن بالغ السُّرعة؛ إذ السَّابق مِن الخيل مَن يفوق أقرانه. فقد ذكر الأصمعيُّ أنَّ مِن شأن العرب أنْ يمْسحوا على وجه السَّابق، وأنشد قول جرير:

إِذَا شِئْتُم أَنْ تَمْسَحُوا وَجْهَ سَابِقٍ ∴ جَوَادٍ فَمُدُّوا فِي الرِّهَانِ عَنَانِيَا (١)

وقوله: (سَلِيمُ الشَّظَى) وصْف يُنبئ عن قوَّة الفرس، ويلزم عنه معنى القوة والثَّبات فهو " كناية عن الثَّبات " (٢) وهو وصْف يرد على ألسنة الشعراء، ومن ذلك قول امرئ القيس:

سَلِيمُ الشَّظَى، عَبْلُ الشَّوَى، شَنِجُ النَّسَا ∴ لَه حَجَبَاتٌ مشرِفاتٌ على الفَالِ (٣)

وقوله: (لَمْ تَحْتَبِلْهُ عُيُوبُ) مُبالغة حَسنة مِن شأنها تِبيان بلوغ هذا الفرس الغاية في الكمَال، والنِّهاية في الحُسن، وفي إسناد الاحتبال إلى العُيوب مَنفيًّا مجاز عقليّ مِن نَفي إسناد الفعل إلى مفعوله، والغرض كما ترى المُبالغة في التنزُّه عن العيوب، وفي التَّعبير أيضًا ما يَشِي بأنَّ للعيوب حبائل على طريقة الاستعارة، وهذا مِن شأنه

→→→

لم تحتبله عيوب: يقال: " حَبَل الصَّيدَ حَبْلاً واحْتَبَله أَخذه وصاده بالحِبالة أَو نصبها له وحَبَلَته الحِبالةُ عَلِقَتْه . . ". لسان لعرب . مادة (حبل) .

لم تحتبله عيوب أي: توقع به من الحبالة ، وهي الشرك. ينظر: هامش رقم ١١ في: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٠٥ .

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي . تحقيق: مفيد محمد قميحة ١ / ١٥٢ . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٠٤ هـ . ١٩٨٣ م.

(٢) هامش رقم ١١ في: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٠٥.

(٣) ديوان امريء القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٦ . ط: دار المعارف . القاهرة . ط: خامسة . من دون.

تصوير بالغ قوَّة الفرس، وفرْط قدرته على صَون نفسه عمَّا يؤذيها، فالفرس قوي البدن والنَّفس معًا.

كلّ هذ التفصيل في جانب المُشبَّه به مقصود لتبيان فضْل المُشبَّه مقصد الحديث الرَّئيس، فتراه قد خلَع على هذا الفرَس مِن الأوصاف الجَسديَّة والمعنويَّة ما يجعله كاملا لا يعتريه النَّقص بحال، وهذا بلا شكّ مَسْلك محْمود منه في هذا السِّياق.

وفي قوله:

كَـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ كَـالرُّمْحِ يَعْـدِلُ صَـدْرَهُ ∴ غَـدَاةَ الطِّعَـانِ لَهْـذَمُ وَكُعُـوبُ

يَفُـضُّ الحَدِيـدَ المُحكَـمَ النَّسْـجِ حَـدُّهُ ∴ وَيَبدُو وَرَاءَ القِرْنِ وَهْوَ خَضِيبُ (١)

يعْتمد أيضًا على التَّفصيل في جانِب المُشبَّه به، فقد صاغ صُورة التَّشبيه كما ترى في بيتين، وليس في بيت واحد، كما في التَّشبيهات التي سَبقت، والغرض من ذلك استقصاء أحوال المُشبَّه به لتحقيق مقصوده، وهو بلوغ فقيده مِن وصْف القوّة والبَسَالة حدّ التمام والكَمال.

وهذا التفصيل مَسْلك محْمود للشُّعراء، تراهم " يشبِّهون الشَّيء بالشَّيء، ثمَّ يأخذون في ذكْر أوصاف وأحوال المُشبَّه به تحديدا دقيقًا، وكلّ حال وتصوير يذكر في هذه الصُّورة إنَّما يصف المُشبَّه وينعكس عليه، ويكشف حالا مِن أحواله " (٢)

---

(١) لهذم وكعوب: سيفٌ لَهْذمٌ حادٌّ ، وكذلك السِّنان والنابُ ، ولَهْذَمَ الشيء قطَعه. ينظر: لسان العرب . مادة (لهذم).

والكَعْبُ عُقْدَةُ ما بين الأُنْبُوبَيْنِ من القَصَبِ ، والقَنا ، وقيل: هو أُنْبوبُ ما بين كلِّ عُقْدتين ، وقيل: الكعبُ هو طَرَفُ الأُنْبوبِ الناشِزُ وجمعه كُعُوب. ينظر لسان العرب . مادة (كعب).

يفضّ الحديد: يدور معنى الفضّ حول الكسْر والتفريق ، يقال: " فَضَضْتُ الشيءَ أَفُضُّه فَضّاً فهو مَفْضُوضٌ وفَضِيضٌ كسرتُه وفَرَّقْتُه وفُضاضُه وفِضاضُه وفُضاضَتُه ما تكسَّر منه ". ينظر: لسان العرب . مادة (فضض).

(٢) التصوير البياني ص ٨٦.

فالمُشبَّه به هنا صُورة الرَّمح المُحْكم النَّسج الذي يواجِه غداة الطِّعان كلّ قاطع مِن آلات الحرْب، حتَّى إنَّه مِن شأنه كسْر الحديد المُتماسِك وتفرقته، ما يجعله يظهر وراء الشُّجعان مُخضَّبا بدمائهم التي ارتوى مِنها، وفي هذا مِنْ عظيم المُبالغة في شأن قوَّة هذا الرُّمح الذي يُشابِهُه فقيده ما لا يَخفى.

وفي قوله: (يَعْدِلُ صَدْرَهُ غَدَاةَ الطِّعَانِ) يُنبئ عن كمَال الاستعداد، وتمام التَّهيؤ، وكأنَّه مِن جُملة العُقلاء، وقد أُسند الفعل :(يَعْدِلُ صَدْرَهُ) إلى آلته، وهو الضَّمير المُستتر العائد إلى الرُّمح، أو إلى الاسم الظاهر (لهذم وكعوب) إنْ كان في موقع الفاعل المُؤخَّر، ولم يسنده إلى الرَّامح للمُبالغة في تعظيم حال الرُّمح ذاته؛ إذ هو مناط القصْد ومحور الحديث.

وقوله: (لَهْذَمُ وَكُعُوبُ) يُمكن أن يكون وضعه وضع الجُملة الاسمية الدَّالة هنا على الحال الثابتة اللازمة لصاحبها، وقد حُذف فيها المُسند إليه للإشارة إلى أنَّه مُتعيَّن، وأنَّ الحدَّة والتكعيب وصفاه الَّذَين يعرف بهما.

وفي قوله: (يَفُضُّ الحَدِيدَ المُحكَمَ النَّسْجِ حَدُّهُ) أجَاد الشَّاعر في انتقاء التَّعبير بالفضّ الذي يدور معناه حول الكَسْر والتفريق والتَّمزيق؛ إذ هو الأوقع بالمفعول:(الحَدِيدَ المُحكَمَ النَّسْجِ حَدُّهُ)، وفي التعبير مُبالغة حَسَنة.

وفي اختيار الشَّاعر للقِرْن في قوله: (وَيَبدُو وَرَاءَ القِرْنِ وَهُوَ خَضِيبُ) دلالة مهمَّة تُعين على تصوير بالغ قوة الرُّمح؛ إذ تتحطَّم على حدّه هامات الأقران الذين يتصارعون في مَيدان النِّزال وهم متكافئون ، ثمَّ تبرز أفضلية هذا الرُّمح، وأنَّه السَّبب الرَّئيس في التفوُّق والغلَبة، ثمَّ إنَّ الشَّاعر قد وضع الحال: (وَهُوَ خَضِيبُ) موضع الجُملة الاسمية لتكون الحَال ثابتة لازمة لصاحِبها، وهو الرُّمح، فهو إذًا أنسب بالسِّياق، وأبلغ، مِن مَجِيء الحال مُفردا.

هذا، وقد اتَّسمت التَّشبيهات المُتتابعة في هذا المَوطن بأنَّها مُترابطة مُتماسِكة؛ إذ إنَّ الشَّاعر قد أحسَن توظيف التَّكرار في صَدر تشبيهاته لذلك: (كَأَنْ لَمْ يَكُنْ)، كما جعل الشَّاعر بين عناصرها التي تشكَّلت منها . وهذا هو الأهمّ . انسجاما وتناغما

وتآلفا، وفي هذا مِن إحْكام الوصْل بهذا الرِّباط المَعنويّ، والذي لا يضاهيه رباط التَّكرار اللفظيّ ما لا يخْفى، فقد أُحْكمت أبيات الصُّور التَّشبيهيَّة برباطين: أحدهما لفظي وهو التكرار، والآخر معنوي.

وفي قوله:

قَلِيلاً مِنَ الأيَّامِ لَمْ يَرْوِ نَاظِرِي ∴ بِهَا مِنْهُ حَتَّى أَعْلَقَتْهُ شُعُوبُ
كَظِلِّ سَحَابٍ لَمْ يَقُمْ غَيرَ سَاعَةٍ ∴ إِلَى أَنْ أَطَاحَتْهُ فَطَاحَ جَنُوبُ
أَوِ الشَّمْسِ لَمَّا عَنْ غَمَامٍ تَحَسَّرَتْ ∴ مَسَاءً وَقَدْ وَلَّتْ وَحَانَ غُرُوبُ
كَأَنِّي بِهِ إِذْ كُنتُ فِي النَّومِ حَالِمٌ ∴ نفى لَذَّةَ الأَحْلامِ عَنهُ هُبُوبُ (١)

يُصوِّر الشَّاعر الحزين في هذا المَوطن مِن القصيدة قصر الزَّمان الذي لبثه هذا الابن مع أبيه . وهذا إحْساس يجري في الأنام جميعًا حين يفْقدون ذويهم . في ثلاث صُور تشبيهيَّة على نمط التَّشبيه المُركَّب، وهذا . في ظنِّي . لون مِن التَّكرار الذي يَبلغ بالحُسن مُنتهاه، فالصُّور الثلاث تجمعها صُورة تشبيه الجَمع الذي يجمع فيه بين أكثر مِن مشبه به لمشبه واحد.

فهو يُصوِّر الهيئة الحاصلة لقصر تلك الأيام التي عاشها إلى الحدّ الذي لا يزال فيها ناظر الأب في ظمأ بالغ إلى رؤيا الوليد الفقيد، بالهيئة الحاصِلة لظلّ السَّحاب الذي سُرعان ما أطاحت به ريح الجَنوب، فلم يُمْهَل المُستظلّ به وقتا طويلا يقي به نفسه مِن لهيب الشَّمس الحارقة.

---

(١) أعلقته شعوب: عَلِقَ بالشيءِ عَلَقاً وعَلِقَهُ نَشِب فيه . . وعَلِقَ الشيءَ عَلَقاً وعَلِقَ به عَلاقَةً وعُلوقاً لزمه ..... والعَلوق: ما يعلق بالإنسان والمنيّةُ عَلوق وعَلاَّقة . . والعُلُق: الدواهي، والعُلُق: المَنايا. ينظر: لسان العرب . مادة (علق).

الطائح: الهالك المُشْرِفُ على الهلاك ، وكل شيء ذَهَبَ وفَنيَ فقد طاحَ. ينظر: لسان العرب . مادة (طوح).

الجَنُوبُ من الرياحِ: حارَّةٌ وهي تَهُبُّ في كلِّ وَقْتٍ ومَهَبُّها ما بين مَهَبِّي الصَّبا والدَّبُورِ مِمَّا يَلي مَطْلَعَ سُهَيْلٍ. ينظر: لسان العرب . مادة (جنب).

ولفظة (أعلقته) في قوله: (حَتّى أَعْلَقتهُ شعُوبُ) لها دَلالة تصْويرية قويَّة؛ إذ تُجسِّد اللفظة بالغ فتك المنيَّة بولده، وهذا يُترجم فرْط أسَى الرَّجل وشدة تحزُّنه على فقيده، فمِن دلالات اللفظة في كتب اللغة معنى: (نشب ولزم)، ويُروى البيت في كتاب الزهرة بلفظ: (حتَّى أغفلته شعوب)[١] فاللفظة تحْكي إصابة المنية لفقيده وهو غافل، وهذا يعني أيضًا كمال التمكُّن وبالغ الإصابة، يُقال: " أَغْفَلْتُ الرَّجل: أَصبْتُه غافلاً " [٢].

وفي اختيار لفظة: (أطاح) في قوله: (إِلَى أَنْ أَطَاحَتْهُ فَطَاحَ جَنُوبُ) تناغُم مع غيره مِن المُفردات التي تتغازر للتأكيد على معنى الهلاك، وفي اللفظة تقرير معنى شدَّة الأخْذ وسُرعة التَّمكُّن، وهذا مِن شأنه تبيان مرارة الفقْد ولوعة الأسى.

هذا، والامتداد بالجُملة الاعتراضية (فطاح) يترجم بالغ سرعة فناء السَّحاب وعدم مكثه لشدة عتوّ تلك الرِّيح طويلا؛ إذ إنَّ الاعتراض هنا يُترجم معنى المُطاوعة وبالغ الانقياد لفعل الرِّيح، ويُبرز الامتداد أيضًا حال رِيح الجَنوب أتمّ تمييز، فهي ريح عاتية شديدة، لا يملك السَّحاب مقاومتها؛ لأنَّه ضعيف ضعف وليده، وهي عاتية عتو المنون، ومِن ثمَّ فإنَّ الشَّاعر قد وفَّق في ايثار ريح الجنوب خاصَّة؛ لأنَّها " الرِّيح التي أهلك الله . عزَّ وجلَّ . بها عادا " [٣] فهي أكثر تناسبا مع مقصوده.

وفي قوله:

أَوِ الشَّمْسِ لَمَّا عَن غَمَامٍ تَحَسَّرَتْ ∴ مَسَاءً وَقَدْ وَلَّتْ وَحَانَ غُرُوبُ [٤]

---

(١) الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني . تحقيق: د / إبراهيم السَّامُرائي ٢ / ٥٦٥ . ط: مكتبة المنار . الأردن . الزرقاء . ط: ثانية . ١٤٠٦ هـ . ١٩٨٥ م.

(٢) لسان العرب . مادة (غفل).

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب النويري . تحقيق: مفيد قمحية ١ / ٩١ . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٢٤ هـ . ٢٠٠٤ م.

(٤) تحسَّرت: الحَسْرُ كَشْطُكَ الشيء عن الشيء . . والانحسار الانكشاف ، حَسَرْتُ كُمِّي عن ذراعي أَحْسِرُه حَسْراً كشفت. ينظر: اللسان . مادة (حسر).

جعل الشَّاعر المُشبَّه به في هذا البيت الهيئة الحاصِلة للشَّمس التي تكشَّفت مِن تحت الغَمام، وقد حانت ساعة الغُروب، فالكون لم ينْعم بعد بسَناها؛ لأنَّ تحسُّرها مِن تحْت الغَمام قد حصَل في وقت يقصُر أمده؛ إذ إنَّ الليل حان وقت انسلاخه مِن تحت النَّهار، فلا إمكان لبقائها.

وفي قوله :

كَأَنِّي بِهِ إِذْ كُنتُ فِي النَّومِ حَالِمٌ ∴ نفى لَذَّةَ الأَحْلامِ عَنهُ هُبُوبُ (١)

يجْعل الشَّاعر المُشبَّه به في هذا البيت: هيئة ما رآه الشَّاعر في مَنامه لِطَيف ولده، لكن قد أزْعجه عن إتمام حِلْمه الذي يلتذّ به وينتظره استيقاظه فجأة، وقد خصَّ الشَّاعر طيف ولده خاصَّة لإبراز بالغ لهْفته إلى هذا الطَّيف، وما يُمثله له مِن سَعادة وسَلْوى، ثمَّ بالغ حَسْرته حين يستيقظ قاطعا لذَّته التي كان يرغب في إتمامها.

ففي هذا البيت مِن تصْوير بالغ قصر عُمر وليده ما لا يخْفى، فالزَّمن الذي لبثه الولد مع أبيه قد تضاءل في هذه الصُّورة البديعة إلى غير زمن يُذْكر؛ لأنَّ طيف النَّائم قصير جدًّا، فكيف إذا كان هناك ما يوقظه أو يدفعه إلى ترك منامه دفعا ؟

فقد يُحْسب للشَّاعر أنَّه لم يقتصر علَى التَّشبيه بالطَّيف، بل أضاف إلى الصُّورة عُنْصرا مُهمًّا تستحيل به الصُّورة مِن الابتذال إلى الغرابة المَحْمودة، وهو قوله: (نفى لَذَّةَ الأَحْلامِ عَنهُ هُبُوبُ) إذ بالوصف يتضاءل الزَّمن كثيرا، وفيه أسند الشَّاعر نفي لذة الأحلام إلى هُبوبه وسُرعة استيقاظه مِن نومه.

ويُمكن أن يكون إسناد نفي اللذة إلى هبوب الرِّياح لا إلى هبوبه هو، وهبوب الرياح ليس فاعلا حقيقيًا، بل سببًا رئيسًا في ذلك، وفي هذا مِن تبيان عتو الريح ما فيه، وفيه كذلك مِن إظْهار الأدَب مع الله ما فيه؛ لأنَّ المجاز العقلي هنا أعان الشَّاعر على نِسبة الفِعل لغير الفاعل الحقيقيّ، وهو الله جلَّ جلالُه.

---

(١) هبوب: هَبَّتِ الريحُ تَهُبُّ هُبُوبا وهَبِيبا: ثارَتْ وهاجَتْ. ينظر: لسان العرب . مادة (هبب).

ويُلْحظ هنا أنَّ الشَّاعر جعل نفسَه ووليده عنصرين مِن عناصر صُورة التَّشبيه المركَّب، فالنَّائم هو الشَّاعر ذاته: (إِذْ كُنتُ فِي النَّومِ حَالِمٌ)، والمُشاهَد طيف ولده خاصَّة: (كَأَنِّي بِهِ حالم)، وهو عُنصر يمْنح الصُّورة التَّشبيهيَّة صِدقا خاصًا، فليست النَّائحة الثَّكْلى كالمُسْتأجرة، كما يَقولون.

التَّرقِّي في تصوير بالغ قصر عُمر مكث ولده في هذه الدنيا بَيْن الصُّور الثلاث بَيِّن، ويجْعل التتابُع حَسَنا لطيفًا، ويُعدّ التَّرقِّي هنا هو سَمْت التتابع في هذا المَوطن، فقد بدأ بتصويره بالهيئة الحاصِلة لظلّ السَّحاب الذي أقام ساعة ثمَّ أطاحت به ريح الجَنوب، ثمَّ ثنَّى بتصويره بالهيئة الحاصِلة للشَّمس التي تكشَّفت مِن تحت الغَمام، وقد حانت ساعة الغُروب، وهو تصوير يُجسِّد قصر المكث في صورة أبلغ في معناها، وأدلّ، على تضاؤل الزَّمن وتلاشيه مِن الصُّورة الأولى، ثُمَّ انتهى الشَّاعر إلي تصويره بهيئة ما رآه الشَّاعر في مَنامه لطَيف ولده، لكن قد أزْعجته عن إتمام حِلْمه الذي يلتذّ به وينتظره هُبوب مُقلقة، وهو بلا شكّ الأبلغ في تصوير انحسار الزَّمن وتلاشيه، حتَّى إنَّ القارئ يدرك أنَّه اختار زمنا يعدُّ يسيرا جدا بمقياس آلة قياس الزَّمن في عصْرنا الحاضر، ومثل هذا في التُّراث الشِّعريّ كثير، وهو بحاجة إلى دِراسة مُستقلَّة.

هذا، ويبلُغ التأمُّل بالقارئ إلى أمر دقيق في صنْعة الشَّاعر، وهو وجود مُؤثِّر خارجيّ في تكوين الصُّور الثَّلاث، فظلّ السَّحاب: (أَطَاحَتْهُ فَطَاحَ جَنُوبُ) والشَّمس: (وَلَّتْ وَحَانَ غُرُوبُ) والطَّيف: (نفى لَذَّةَ الأَحْلامِ عَنهُ هُبُوبُ)، هذا المُؤثِّر كان بُلْغَة الشَّاعر إلى بُلُوغ مُراده وتحقيق مَقْصده، وأعانه كذلكَ على نقل الصُّور الثَّلاث مِن صُورة القريب المُبتذَل إلى البعيد الغريب.

هذا، وقد كان لُجُوء الشَّاعر إلى امتِداد المَعْنى بالجُملة الاعتراضية: (إِذْ كُنتُ فِي النَّومِ) لتخصيص زمان رؤية الطَّيف بالليل، فالمرْء . وهو يقْظان . قد يرى طيف أحبابه، وقد يمتدّ، لكنَّ طَيف المنام بلا شكَّ قصير جدا.

وفي قول إبْراهيم بن المَهْديّ في القصيدة ذاتها:

وَكُنْتُ بِهِ فِي النَّائبَاتِ إِذَا عَرَتْ ∴ وَظَهْرِي مُمْتَدُّ القَنَاةِ صَلِيبُ

فَأَصْـبحْتُ مَحْنِيًّـا كَئِيبًـا كَـأَنَّنِي ∴ عَلَـيَّ لِمَـنْ أَلْقَـى الغَـدَاةَ نُضُـوبُ

بِحَـالِ الَّـذِي يَجْتَاحُـهُ السَّـيلُ بَغْتَـةً ∴ فَيَفْتَقِـدُ الأُذُنَـينِ وَهُـوَ حَرِيـبُ

يُقلِّـبُ كَفَّيـهِ هُنَـاكَ وَقَلْبُـهُ ∴ هَـوَاءُ وَحِيـدًا مَـا لَدَيـهِ غُـرُوبُ

يُنَـادِي بِأَسْـمَاءِ الأَحِبَّـةِ هَاتِفًـا ∴ وَمَـا فِيهِمُـو لِلهَـاتِفِينَ مُجِيـبُ (١)

يتتابع فيه تشبيهان: خصَّهما إبْراهيم بن المَهْديّ لتصوير حالته بعد فقْد ولده .

أمَّا أحدُهما: فتلا تصويره لحالته قبل فقد ولده في قوله:

وَكُنْـتُ بِـهِ فِـي النَّائِبَـاتِ إِذَا عَـرَتْ ∴ وَظَهْـرِي مُمْتَـدُّ القَنَـاةِ صَـلِيبُ

وفيه أبان الشَّاعر عن دور الابن الفقيد في حياة الأب، وأنَّه كان سببًا مِن أسباب عزَّته ومنعته، يتقوَّى به إذا فشت النَّوازل والكُربات، وكثرت، فما أجمَلَ قوله: (وَكُنْتُ

---

(١) في النائبات إذا عرت: يقال: " قد عَرَّت الإبلُ تَعُرُّ وتَعِرُّ عَرّاً فهي عارّة وعُرَّتْ ، واستعَرَّهم الجربُ فَشَا فيهم. ينظر: لسان العرب . مادة (عرر).

القناة: الرمح . . . وقيل: كل عصا مستوية فهي قَناة ، وقيل: كل عصا مُستوية أَو مُعْوَجَّة فهي قناة. ينظر: اللسان . مادة (قنا).

صليب: الأَصْلابُ جَمْعُ صُلْب وهو الظهر ، والصَّلابَةُ ضدُّ اللِّين ، صَلُبَ الشيءُ صَلابَةً ، فهو صَلِيبٌ وصُلْب وصُلَّب . . ينظر: لسان العرب . مادة (صلب).

نضوب: نَضَبَ الشيءُ سالَ ، ونَضَبَ الماءُ يَنْضُبُ بالضم نُضوبا ، ونَضَّبَ إذا ذَهَبَ في الأَرض ، وفي المحكم غارَ وبَعُدَ. ينظر: لسان العرب . مادة (نضب).

ويُروى البيت:

فَأَصْبحْتُ مَجنونا كَئِيبًا كَأَنَّنِي عَلَيَّ لِمَنْ أَلْقَى الغَدَاةَ ذنووبُ

ينظر: الزهرة لابن داود الأصبهاني ٢ / ٥٦٥.

حريب: من سلب حريبته . . وحريبة الرَّجل ماله الذي سلبه. ينظر: لسان العرب . مادة (حرب).

وقلبه هواء: أي فارغ . . . كلّ فارغ هواء ، والهواء الجبان ؛لأنَّه لا قلب له ، فكأنَّه فارغ. ينظر: لسان العرب . مادة (هوا).

غُروب: الغَرْب أحد الغُروب ، وهي الدموع حين تجري ، يقال بعينه غَرْب: إذا سال دمعها. ينظر: لسان العرب . مادة (غرب).

بِهِ فِي النَّائبَاتِ إِذَا عَرَتْ) !! إذ إنَّ في التعبير بالكون هنا دَلالة على تَمكُّن وصْف العزَّة والقوَّة والمنَعة له في الماضِي بسبب ولده، وأنَّ هذا الوصف كان راسخًا لم يفارق الأب أبدًا، وأعان على تصوير ذلك كلّه القيد بالجار والمجرور المصدر بـ (باء السببية).

هذا، وقد حذف المُسند: (خبر كنت) الذي يُمكن تقديره بلفظ قويًّا أو عزيزا أو مستنصرا أو مغالبًا، لضيق المقام الذي سببه الأسى والتَّرح الذي يكابِده الشَّاعر، وهو حال تختزن فيه النَّفس الكلمات بداخلها، حتَّى لا تتمزَّق، أو تهلك، فإنَّ مُجرد ذكر الأحبَّة على الخاطر يجري الدَّمع ويحزن القلب، فكيف بذكر الولد، وهو قطعة مِن نفس الوالد ؟

ولا شكَّ عندي أنَّ الحذف هنا يتناغم أيَّما تناغُم مع حال الأب بعد الفقد، فمُفارقة أحد أهمّ أسباب الاستنصار والقوَّة والعزة والمنَعة هو نفسه مُفارقة المُسند لجُملة: (وَكُنْتُ بِهِ فِي النَّائبَاتِ إذا عرت).

هذا، ويُمكن أن يكون الجار والمجرور في قوله: (وَكُنْتُ بِهِ . .) خبرا لكان، وعليه يكون المعنى أنَّ وجوده الحقيقيّ الذي كان يهنأ به إنَّما هو بولده، وفي هذا ما فيه مِن قيام حياته بحياته وذهابها بذهابه [1].

وفي قوله: (وَظَهْرِي مُمْتَدُّ القَنَاةِ صَلِيبُ) وهو جُملة مُسْتأنفة تعدَّد فيها المُسند لغرض إبراز مكانة الابن في حياة الأب، وهو كِناية عن استقامته، وشدَّة بأسه، وفرْط قوَّته.

وفي قوله (مُمتدّ القناة) جعل الشَّاعر على طريقة الاستعارة بالكناية لظهْره قناة، مُبالغة في تصوير فرْط قوَّته التي يراها في استقامتها كالرُّمْح.

أمَّا قوله:

---

(١) فائدة كتبها بخط يده: الأستاذ الدكتور / حسين إبراهيم إمام ، جزاه الله خير الجزاء وأوفاه.

فَأَصْـبحْتُ مَحْنِيًّـا كَئِيبًـا كَـأَنَّنِي ∴ عَلَـيَّ لِمَـنْ أَلْقَـى الغَـدَاةَ نُضُـوبُ

ففيه يُصَوِّر الشَّاعر حالته بعد فقد ولده . وهنا يتبيَّن شاسع الفرق بين حالته قبل الفقد وبعده . فتراه يُخبر عن نفسه بأنَّه أصبح بعد الفقد مَحنيًّا كئيبا، وهي حال تُترجم هلَكة البُنيان في الجَسَد والنَّفس معًا، ويُروى البيت في كتاب الزَّهرة: (فأصبحت مجنونا كئيبا)، وهذا مع بالغ تصويره تحطُّم أركان تلك النَّفس، إلا أنَّ رواية الدِّيوان: (فَأَصْبحْتُ مَحْنِيًّا كَئِيبًا) عندي أبلغ وأدلّ؛ لأنَّها صوَّرت هَلكته كما أسْلَفنا في الجَسَد والنَّفس مَعًا، ورواية (الزهرة) اقتصرت على تصْوير هلكَة النَّفس المعنويَّة فحسْب، فتعدُّد المُسند هنا :(مَحْنِيًّا كَئِيبًا) أو (مجنونا كئيبا) كان وسيلة الشَّاعر لتصوير حالته أتمّ تصوير .

وممَّا يُرجِّح رواية (محنيا) أيضًا: تَحقُّق المُناسَبة مع وصْف الظَّهر بأنَّه مُمتدّ القناة في البيت السَّابق.

هذه الحالة، وهي مِن الصُّورة الكليَّة في موقع المُشبَّه، يُشبِّهها الشَّاعر بهَيئته الخاصَّة مِن الذُّبول والضَّعف والانكسار، حين فارقه وليده وبَعُد عنه، وهي حالة يستدعيها الشَّاعر مِن حال النَّبات الأخضر الغضّ الذي ذهب عنه الماء، فهو إلى ذبول وتحوُّل إلى هشيم.

وقوله: (لِمَنْ أَلْقَى الغَدَاةَ) جزء لا ينْفصِم عن صُورة المُشبَّه به، فحالته تلك مقيَّدة بحالة الرَّفْهَان زمان الغدَاة، حين يلقي رحله وجميع متاعبه عن نفسه وكاهله، وقد أحاطَ به التَّعب والإعياء مِن كلّ جانب، بل إنَّ الشُّعور بالضَّعف والكَلال يتزايَد وقْعه على النَّفس في وقت الدَّعة والرَّاحة والسُّكون، ففي حذف معْمول: (ألقى) تناغُم بيِّن مع حال التَّعب الذي يشعر به صاحب الرَّحل، فإسقاط الرَّحل عن الكاهل، والهُموم عن النَّفس، هو ذاته إسقاط المفعول عن عامله.

وهذه الصُّورة أتبعها إبراهيم بن المهديّ بصُورة أخرى اشتملت على ثاني التَّشبيهين، وهي أبلغ منها، وأوقع، في تصوير حالته بعد الفقد، لما اشتملت عليه مِن تفصيل واستقصاء، فقد بناها الشَّاعر في ثلاثة أبيات، وذلك في قوله:

بِحَالِ الَّذِي يَجْتاحُهُ السَّيلُ بَغْتَةً ∴ فَيَفْتَقِدُ الأُذُنَينِ وَهُوَ حَرِيبُ
يُقلِّبُ كَفَّيهِ هُنَاكَ وَقَلْبُهُ ∴ هَوَاءُ وَحِيدًا مَا لَدَيهِ غُرُوبُ
يُنَادِي بِأَسْمَاءِ الأَحِبَّةِ هَاتِفًا ∴ وَمَا فِيهِمُو لِلهَاتِفِينَ مُجِيبُ

وفيها يَجعل المُشبَّه به: حال مَن اجتاحه السَّيل فجأة، فأفقده أُذُنيه، ما جَعله يُقلِّب كفَّيه في ذلك المَكان البعيد، ندَمًا وحَسْرة على ما هو فيه، خَائفا مَذْعورا، لا يجد مَن يُنجيه حوله، لكنَّه لشدَّة ما هو فيه يسْتغيث بأحبَّته، علَّه ينجو ممَّا هو فيه مِن كرْب وهول، ولكن لا مجيب.

فالصُّورة كما ترَى في غاية الحُسْن والرَّوعة، لِما فيها مِن تفصيل، يشِي بطُول نفَس الشَّاعر، وبالغ قُدْرته على رَصْد جُلّ أوصَاف المُشبَّه بِه، والغرض من ذلك المُبالغة في تصوير حال هيئة الشَّاعر: (المُشبَّه) وقد فقَد ساكن الرُّوح، فأصبح بفقده حزينا كئيبا، قد تحَطَّمت نفْسه، وتزلزلت أركانه.

فكلّ وصْف مِن أوصاف المُشبَّه به أعان الشَّاعر على تحقيق مقصوده، فحين تتأمَّل بِنية التَّشبيه المُركَّب يبين لك ذلك في جلاء، فقوله: (بِحَالِ الَّذِي يَجْتاحُهُ السَّيلُ بَغْتَةً)، وهو أول عُنصر مِن عناصر المُشبَّه به قد جعله في حَيِّز جُملة صِلة الموصُول لزيادة تقرير الغرض المَسُوق له الكلام وتوضيحه، وفي اختيار الفعل(يجتاحه) إيراز لبالغ الهلاك الذي أحاط بهذا المُجتاح، فـ (الجَوح) تدور مادته في كتب اللغة: حول معنى الاستئْصال والهلاك [1]، وأمَّا جعله في صُورة المُضارع فلاستحْضار صُورة الاجتياح أمام عينيك، وكأنَّها تحدُث الآن، وفيه أيضًا دَلالة على التجدُّد والحدوث، فهو يتناغم مع تجدُّد الأحزان والأتراح في نفسه، ثمَّ إنَّ وصفه هذا الاجتياح بالحال الدَّالّ على أنَّه حَصَل (بغتة) مقصود أن يكون وقعه على نفس المُجْتاح أشدّ وأنْكى، ثمَّ إنَّه لا يجد آنذاك ما يدفع به عن نفسه، فيكون ندمه وحسْرته

(١) ينظر: لسان العرب . مادة (جوح).

أبلغ، فالهلاك أو العذاب " إذا فاجأ مِن غير شعور به كان أشدّ وأصعب، بخلاف أن يكون قد استعدّ له وتهيئ لحلوله " [1] فالكلمة على ما ترى وقعت مِن الصُّورة خير موقع.

ثُمَّ ينطلق الشَّاعر في استقْصاء أثر هذا الاجتياح على نفْس صاحبه، وذلك في عدَّة أوصاف مُتتابعة على النَّحو الآتي:

فَيَفْتَقِدُ الأُذُنَينِ

وَهُوَ حَرِيبُ

يُقلِّبُ كَفَّيهِ هُنَاكَ

وَقَلْبُهُ هَوَاءُ

وَحِيدًا مَا لَدَيهِ غُرُوبُ

يُنَادِي بِأَسْمَاءِ الأَحِبَّةِ هَاتِفًا

فأمَّا قوله: (فَيَفْتَقِدُ الأُذُنَينِ وَهُوَ حَرِيبُ) ففيه دلالة على بالغ تأثير السَّيل على جسَد هذا المُجتاح، ما جعله يعدم حاسّة السَّمع، وقوله: (وَهُوَ حَرِيبُ) يدل على أنَّ هذا السَّيل لبالغ قوَّته، وفرط شدَّته، قد سلَبه ماله وحريبته التي قد يدْفع بها عن نفسه الأذى.

وأمَّا قوله: (يُقلِّبُ كَفَّيهِ هُنَاكَ) فيُكنِّي به عن شدة النَّدم وبالغ الحسْرة التي أصابته، وهذا أثر نفْسيّ أحدثه اجتياح السَّيل، فالسَّيل لم يهلكه جسدًا فحسب، بل أهلكه في البدن والنَّفس معًا، وفي هذا ما فيه، ثمَّ إنَّ اسم الإشارة للبعيد :(هناك) يُنبئ عن شدَّة اجتياح السَّيل له، حيثُ إنَّه يدلّ على أنَّ السَّيل مزَّقه وقطَّع أوصاله؛ إذ جرَفَه بعيدًا بعِيدا، وفي هذا مِن تصوير فرْط قوَّته ما لا يخْفى.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي . تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ٥ / ١٦٦ . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . ط: أولى . ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١ م.

للسَّيل كذلك على نَفْس مَن اجتاحه هذا السَّيل أثر نفسيّ آخر، صوَّره قوله: (وَقلْبُهُ هَوَاءُ)، وهو كناية عن شدَّة الذُّعر وبالغ الخوف الذي أصابه، حتَّى لكأنَّه بلا قلب؛ وذلك لأنَّه عُدِم الإحساس والشُّعور، وأصبح بليدَ الإدراك بما يدور حوله، فشدَّة وقع السَّيل عليه أفقده توازنه وصَوابه، وجعله كأنَّه لا يدري عمَّا يجري شيئا، وفي هذا مِن المُبالغة المحْمودة ما لا يَخْفي.

هذا، والحال في قوله: (وَحِيدًا مَا لَدَيهِ غُرُوبُ) يُترجم أيضًا صُعوبة اجتياح هذا السَّيل، حيث لم يكن هُناك مَن يتشارك معه النَّجاة، أو يقوِّي عزيمته، أو يَمْنَحه أمَلا في الخلاص، وقصد الشَّاعر مِن قوله: (مَا لَدَيهِ غُرُوبُ) جفاف الدَّمع عنده، وهو كِناية عن بالغ الحُزن الذي أحاط به، حتَّى إنَّه مع عظيم الهول الذي هو فيه، لا يستطيع البُكاء الذي يُخفِّف عن تلك النَّفس . التي يُحيط بها الخوف مِن كلّ جانب . أتراحها وأحزانها.

وأمَّا قوله:

يُنَادِي بِأَسْمَاءِ الأَحِبَّةِ هَاتِفًا ∴ وَمَا فِيهِمُو لِلهَاتِفِينَ مُجِيبُ

فيُترجم لَهفة مَن اجتاحه هذا السَّيل إلى النَّجاة وبالغ رغبته في الخلاص ممَّا هو فيه، تأمَّل اختيار الفِعل في زمَن المُضارع وما فيه من الدَّلالة على تجدُّد النِّداء دُون يأس، مع يقينه بأنَّه وحده هُناك في ذاك المَكان البعيد يُصارع بمفرده أشباح هذا السَّيل الجارف، ثمَّ التَّعبير بصِيغتي الجمْع: (بِأَسْمَاءِ الأَحِبَّة) للدَّلالة على طُول زمن النِّداء، فهو يُنادي واحدًا تلو الآخر، وأحبته كثيرون، ثمَّ يأتي الحال: (هاتفا) لإبراز طَبيعة النِّداء، وأنَّه كان يصيح فيهم بأعلى صوته، وفي هذا مِن تجسيد بالغ اللَّهفة إلى النَّجاة، وصُعوبة ما يجده، ما لا يخفى.

ويُمكن أن يكون [1] ما قصد بهذا الجمع: (بِأَسْمَاءِ الأَحِبَّة) إلا حبيبه الغالي وفلذة كبده على طريقة وضع الجمع موضع المفرد؛ لأنَّه يرى أنَّ ابنه كل أحبابه، وأنَّه بفقده فقدهم، وفي هذا مِن التفجُّع ما فيه.

وقوله: (وَمَا فِيهِمُو لِلهَاتِفِينَ مُجِيبُ) يُترجم اليَأس في أبْلغ صُوره، فعدم استجابتهم لكلّ هذه الصَّرخات المُدوِّية يعود على نفسه بالحَسرة، وخيبة الرَّجاء، فلا شكَّ أنَّ هذه الأوصاف المُتتابعة جسَّدت حال هذا المُجتاح أتمّ تجسيد، ومِن ثمَّ أطلعك الشَّاعر في أصدق مرأى على حالته بعد فقد ولده، في صُورة أكثر وُضوحا، وأبعد تأثيرا.

حِسيَّة عناصر الصُّور التشبيهيَّة في هذا الموضع بيِّنة واضحة، وسوف تراها ضاربة بوضوح في صُور الشَّاعر التشبيهيَّة كلّها، ومِن ثمَّ فإنَّ القول بأنَّ حِسِّية عناصر صُور الشَّاعر التَّشبيهيَّة مع كثْرتها أمْر لازم ومُطَّرد هو قول يُحقِّقه أدنَى تأمُّل للبناء اللغويّ لها.

****

أمَّا <u>الموضع الثاني</u> الذي تتابعت فيه التَّشبيهات المُركَّبة، فقد جاء في قصيدة في وصْف ناقة، وعدَّتها أحد عشر بيتا، والقصِيدة مبنيَّة معانيها على فن التَّشبيه.

والتشبيه .كما سترى .يتسم بالتتابُع، وأحسب أنَّ نادرًا ما يكون هذا لشِاعر غير الخليفة المُغنِّي (إبراهيم بن المهديّ)، وهذا يُؤكِّد أنَّ التَّشبيه بصُورة عامَّة يمثل خَصيصة أُسلُوبيَّة في شِعره.

فقوله:

بِكُلِّ جُلالَةٍ عَيْسَاءَ حَرْفٍ ∴ عَلَنْداةٍ وَأَعْنَسَ عَجْرَفِيِّ

إذا شُدَّتْ بها الأَنْساعُ أَصْغَتْ ∴ كَمَا أَصْغَى النَّجِيُّ إلَى النَّجِيِّ

---

(١) فائدة للأستاذ الدكتور / حسين إبراهيم .

وَراغِيَــةٍ ثَنَتْــكَ عَــنِ التَّصــابِي ∴ كَمَــا ثَنَــتِ الضَّــعِيفَ يَــدُ الْقَــوِيِّ [1]

هُنَــاكَ شَــكَوْتَ مــا تَلْقَــى إلَيْهَــا ∴ كَمَــا يَشْــكُو الْفَقِيــرُ إلَــى الْغَنِّــي

تَســاقَطُ وَهْــيَ فــاتِرَةُ الْمــآقِي ∴ تَســاقُطَ مُهْجَــةِ الظَّبْــيِ الرَّمِــيِّ

وَتَجْـرِي الْخَمْـرُ بَعْـدَ النَّـوْمِ مِنْهـا ∴ عَلَــى سِــمْطَيْنِ مِــنْ دُرٍّ نَقِّــي

شَــكَتْ إشْــرافَ قَيِّمِهــا عَلَيْهــا ∴ كَمَــا يَشْــكُو الْيَتِــيمُ مِــنَ الْوَصِــيِّ [2]

---

(١) الأبيات من الوافر. ينظر شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٣٨ ، ٢٣٩.

جُلالة: أي ضخمة. ينظر لسان العرب . مادة (جلل). عيساء: العيس: الإبل تضرب إلى الصُّفرة . . وعيساء الإبل البيض يخالط بياضها شيء مِن الشُّقرة. ينظر: لسان العرب . مادة (عيس).

حرف: الحرف من الإبل النجيبة الماضية التي أنضتها الأسفار ، شبهت بحرف السيف في مضائها ونجائها ودقتها ، وقيل: هي الضامرة الصلبة ، شبِّهت بحرف الجبل في شدَّتها وصلابتها. ينظر: لسان العرب . مادة (حرف). عَلَنْداة: أي العظيمة الطويلة. ينظر: اللسام . مادة (علند) .

أَعْنَس: العنس: الناقة القوية ، شُبِّهت بالصخرة لصلابتها. ينظر: اللسان . مادة (علنس).

عَجْرَفِيِّ: العجرفية السُّرعة في المشي . . وهي التي لا تقصد في مشيها من نشاطها. ينظر: اللسان . مادة (عجرف). أنساع: النِّسْع سير يضفر على هيئة أعنَّة النِّعال تشد به الرِّحال . . قال ابن الأثير: سير مضفور يجعل زماما للبعير وغيره . . ينظر: اللسان . مادة (نسع) .

أصغت: أصغت الناقة تصغي إذا أمالت رأسها إلى الرَّجل ، كأنَّها تستمع شيئا ، حين يشدّ عليها الرَّحل. ينظر: لسان العرب . مادة (صغا). راغية: الرُّغاءُ: صَوتُ ذواتِ الخُفِّ. ينظر: اللسان . مادة (رغا).

ثنتك: ثنى الشيء ثنيا رد بعضه على بعض . . وثناه: كفَّه وصرفه عن حاجته. ينظر: اللسان . مادة (ثني)

التصابي: الصِّبا من الشَّوْق ، يقال منه تَصابَى ، وصَبا يصْبُو صَبْوةً وصُبُوّاً أي :مالَ إلى الجهل والفُتوَّةِ .

(٢) تساقط: تساقَط على الشيء أي ألقى نفسَه عليه . . وتساقَط الشيءُ تتابع سُقوطه . . . يقال الرجل فيه سِقاطٌ إذا فَتَر في أَمره ووَنَى. ينظر: اللسان . مادة (سقط). فاترة: الفَتْرَةُ الانكسار والضعف . . وطَرْف فاتر: إذا لم يكن حديداً. ينظر: لسان العرب . مادة (فتر).

←←←

أَرَتْـكَ مَحاسِـنًا مِنْهـا اخْتِلاسـا ∴ تُضِـيءُ إضـاءَةَ الْبَـرْقِ الْخَفِـيِّ
كَتَخْلِيـلِ الأَلُـوَّةِ ثُـمَّ زَالَـتْ ∴ زَوَالَ الْفَـيْءِ فِـي ظِـلِّ العَشِـيِّ
وَيَلْـذَعُ مُهْجَتِـي ذُو الْعَـذْلِ فِيهَـا ∴ كَلَـذْعِ السَّـوْطِ خاصَـرةَ الْبَطِـيِّ
كَـأَنَّ اللَّيـلَ زِيـدَ إِليـهِ لَيـل ∴ مُقِـيمٌ فَاسْـتَمَرَّ عَلَـى الشَّـجِيّ (١)

→→→

مهجة: المُهجة دم القلب ، ولا بقاء للنفس بعدما تُراق مهجتها. ينظر: اللسان . مادة (مهج).

الظبي الرميّ: المصاب. ينظر هامش رقم (٥) في: شعر إبراهيم بن المهدي وأخباره ص ٢٣٨.

سمطين: السمط: الخيط ما دام فيه الخرز وإلا فهو سلك ، والسّمط: خيط النَّظم لأنَّه يعلَّق ، وقيل: هي قلادة أطول من المخنقة. ينظر: اللسان . مادة (سمط).

(١) **اختلاسا:** خَلَستُ الشَّيء واختَلَسته وتخلَّسته: إذا استلبته ، والتخالُس: التسالُب. ينظر: اللسان . مادة (خلس) تخليل الألوة: الخلل: الفرجة بين الشيئين . . والتخليل تفريق شعر اللحية وأصابع اليدين والرجلين في الوضوء ، وأصله مِن إدخال الشَّيء في خلال الشَّيء ،وهو وسَطه. ينظر: لسان العرب . مادة (خلل).

الأَلُوَّة: ضَرب مِن خيار العود وأجوده ، وتُفتح هَمزته وتضمّ. ينظر: لسان العرب . مادة (لوي).

زوال الفيء: الفيء: قال ابن السكيت: الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس ،وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل. ينظر: اللسان . مادة (فيأ) .

ذو العذل: العذل: اللوم . . قال ابن الأعرابي: العذل: الإحراق ، فكأنَّ اللائم يحرق بعذله قلب المعذول. ينظر: اللسان . مادة (عذل).

كلَذْع السَّوط: اللذع: حُرقة النَّار . . ولذعته النار لذعا لفحته وأحرقته . . والتلذُّع: التوقُّد. ينظر: اللسان . مادة (لذع). السَّوط: خلْط الشَّيء بعضه ببعض . . وسُمِّي السَّوط سَوطا ؛لأنَّه إذا سِيط به إنسان أو دابة خُلط الدم باللحم.

خاصرة البطي: الخَصْر: وسط الإنسان. ينظر: اللسان . مادة (خصر)

البطيّ: البطيء بتسهيل الهمزة. ينظر:هامش رقم (١٠) في: شعر إبراهيم بن المهدي وأخباره ص ٢٣٩ .

الشَّجي: الشَّجْو: الهَمّ والحُزْن . . والشَّجي بالتخفيف هو الذي أصابه الشَّجا ، وهو الغَصَص ، وأمَّا الحزين فهو الشجي بتشديد الياء. ينظر اللسان . مادة (شجا).

جاء في مَطْلع القصِيدة، وقد تزاحمَت أوصاف النَّاقة الكريمة مِن القُوَّة والضَّخامة والسُّرعة وجمال الهيئة:

بِكُلِّ جُلالَةٍ عَيْسَاءَ حَرْفٍ ∴ عَلَنْداةٍ وَأَعْنَسَ عَجْرَفِيِّ

ويلحظ فيها أنَّ الصفات جاءت كلّها منونة، ولهذا دلالة مُهمَّة، عناها إبراهيم بن المهدي، فـ " التنكير يعني أنَّ كلَّ صفة مِن هذه الصِّفات قائمة في النَّاقة على أفضل وجوه هذه الصِّفة " (١)

هذا، وسُقوط الواو بين أوصاف هذه النَّاقة: (بِكُلِّ جُلالَةٍ عَيْسَاءَ حَرْفٍ عَلَنْداةٍ) يعني " كأنَّك جعلت هذه الصِّفات صفة واحدة، لا تتلاحق ولا تنتظم بنظام، وإنَّما تلاحقت وحدها، وانتظمت وحدها، وصارت صفة واحدة " (٢) ومِن ثمَّ فناقته فريدة تنماز عن ذوات جِنْسها.

وقوله:

إِذَا شُدَّتْ بِهَا الأَنْسَاعُ أَصْغَتْ ∴ كَمَا أَصْغَى النَّجِيُّ إِلَى النَّجِيِّ

يُشبِّه هيئة إصْغاء النَّاقة رأسها إلى قيِّمها حين يشُدّ عليها رِحاله ومتاعه خُضوعا له وامتثالا لفعله، بهيئة ميل النَّجي رأسه إلى نجيه، حِين يُساره بسره في صوت خفِيض، لا يسمعه أحد غيرهما، والجامع بين الهيئتين بالغ الميل، وفرط الدنوّ اللازم عنه معنى كمَال الاستجابة، وتمام الامتثال.

وقوله: (إذا شُدَّتْ بها الأَنْساعُ) يُترجم شدَّة إحكام تلك الرِّحال، وقد أبرز الشَّاعر في هذا التعبير متانة تلك النَّاقة، حتى ترَى الشَّاعر قد جعل أربطة تلك الرِّحال تشتدّ

---

(١) راجع بتصرُّف: دراسة في البلاغة والشِّعر د محمد محمد أبو موسى ص ٢١٧ . ط: مكتبة وهبة . القاهرة . عابدين . الطبعة الأولى . ١٤١١هـ . ١٩٩١ م.

(٢) دراسة في البلاغة والشِّعر ص ٢٣٣.

قوة وثباتا بالناقة ذاتها، حتَّى لكأنَّ الأنساع والرّحال يتقوَّيان معا بها، وفي هذا مِن التأكيد على قوتها وصلابتها ما لا يَخْفى.

وفي قوله:

وَراغِيَـــةٍ ثَنَتْـــكَ عَـــنِ التَّصـــابِي ∴ كَمَـــا ثَنَـــتِ الضَّـــعِيفَ يَـــدُ القْـــوَيِّ

يجْعل الشَّاعر هنا النَّاقة لكمال تحقُّق الوصف فيها كأنَّها ما خُلقت إلا للرغاء، أو كأنَّها قد تجسَّدت مِن الرِّغاء وتكوَّنت منه، وهذا يعني أنَّ هذا الوصف مِن أبرز أوصاف تلك النَّاقة .

وفيه يُشبِّه هيئة النَّاقة التي تجَسَّدت مِن الرّغاء الذي هو أبرز أوصافها، حتَّى جعلها قادرة على أن تستولي على نفْس قيِّمها وتتملَّكه، وأمارة ذلك أنَّها تصْرفه عن الشَّوق إلى النِّساء، مع كون صرْفه عن ذلك أمرًا عزيزا، بهيئة الرَّجل القويّ حين يغالب الضَّعيف فتراه يثني يده عنه، حتَّى يجعله كالعاجز الذي لا يمكنه أن يجعل يده تصِل إليه، وذلك لبالغ ضَعفه، وفرْط قوَّة خَصْمه.

وفي قوله:

هُنَـــاكَ شَـــكَوْتَ مـــا تَلْقَـــى إليَهْـــا ∴ كَمَـــا يَشْـــكُو الْفَقِيـــرُ إلـــى الْغَنِّـــي

يُشبِّه هيئة شكوى ما يلقاه ويجده إلى هذه الناقة، حين يخلو بها وحدها بعيدا عن أعين الرقباء، ميلا وخضوعا واستكانة، بهيئة شكوى الفقير العوَز والحاجَة إلى الغنيّ الذي يمْلك ما يسدّ به حاجته، والجامع بينهما: هيئة الخضوع والميل والاستكانة في كلّ.

وفي قوله:

تَسَـــاقَطُ وَهْـــيَ فـــاتِرَةُ الْمـــآقِي ∴ تَســـاقُطَ مُهْجَـــةِ الظَّبْـــيِ الرَّمِـــيِّ

وَتَجْـــري الْخَمْـــرُ بَعْـــدَ النَّـــوْمِ مِنْهـــا ∴ عَلَـــى سِـــمْطَيْنِ مِـــنْ دُرٍّ نَّقِـــي

يُشبِّه على طريقة التَّشبيه المُؤكَّد الذي يأتي على صُورة المَصْدر، هيئة تساقط عيني النَّاقة الفاترتين قبل الدّخول في النَّوم، بهيئة تساقُط روح الظَّبي الذي أصابه

رمْـي صـائده، ومـا يلـزم مِـن ذلـك مِـن فتـور وانكسـار عينـه خاصَّـة، وجوارحـه عامَّـة، والغرض مِن التَّشبيه تحسين حال المُشبه مِن وجه؛ لأنَّ الشَّاعر يُسَوِّي في خلَده بين عيني ناقته وعيني الظبي، وإبراز حال المُشبَّه مِن وجه آخر .

ولا يعيب هذه الصُّورة أنَّ الشَّاعر جعل المُشبَّه بـه هيئة الظَّبي الذي تتساقط نفْسه قبيل موته؛ إذ ليست هذه الصُّورة ممَّا ينفر منها مَن سكن البادية، فهي . على ما ترى . أبلغ ما يكون في هذا المعْنى.

وقد امتدّ الشَّاعر هنا بجُملة الاعتراض(وَهْيَ فاِتَرَةُ الْمآقِي)؛ لأنَّ وصف العين حال مُغالبة النَّوم أهمّ ما يتعلّق بـه غرض وصف مخالطة النوم لعيني الناقة، فالعين أظهر ما يتبدَّى فيه أثر النّعاس على الإنسان والحيوان كما هو مُشاهد، ومِن ثَمَّ فالاعتراض مكَّن الشَّاعر مِن النَّص على هيئة عيني الناقة حال تَساقُطها ومغالبتها النَّوم، ولو سقط مِن الكلام لسقط جُزء مُهمٌّ مِن أجزاء الصُّورة، ومِن ثمَّ رأيته لمزيد عنايته ببيان هيئة عيني الناقة يقطع حديثه عن تَساقُط ناقته بالجملة الاعتراضية، ثمَّ يعود إليه مرّة أخرى، وفي (تساقط) حذفت التاء إذ أصل الفعل (تتساقط) ما يتناغى مع سقوط الناقة حال النوم [١]

والاعتراض أفاد كذلك امتداد زمن تساقط النَّاقة المُستملَح الذي أقام الشَّاعر البيت له؛ لأنَّ ما قبل الاعتراض تساقط، وما بعده تساقُط، وهي بين هذين تتهادى فاترة المآقي ليبدو الاعتراض كاشفًا حال المُحبّ المُتعمّق في النَّظر إلى ناقته حال تهاديها للنوم[٢].

للنوم[٢].

---

(١) ينظر للباحث بتصرُّف: بلاغة الامتداد بالاعتراض في شعر الخليفة المغني إبراهيم بن المهدي ـ بين السياق والدلالة . د / علي محمود عباس . ١ / ٣٠٣ . مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط . مجلة علمية متخصصة محكمة . العدد الأربعون . ١٤٤٢ هـ . ٢٠٢١ م .

(٢) فائدة للأستاذ الدكتور / حسين إبراهيم إمام.

هذا، وما تقدَّم مِن وصف تساقُط عيني تلك النَّاقة قد كان وصلة لوصف حالها، وهي نائمة، في البيت التالي عند قوله:

وَتَجْـري الْخَمْـرُ بَعْـدَ النَّـوْمِ مِنْهـا ∴ عَلَـى سـمْطَيْنِ مِـنْ دُرٍّ نَّقِـي

وفيه يُشبِّه ضِمنا هيئة شفتي النَّاقة وأسنانها بعد دخولها في النَّوم، وهذا يعكِس تعمُّق هذا الرَّجل في النَّظر لناقته؛ ذلك لأنَّه يعشق النّظر لها، فهو لا يزال بعد يراقب عينيها مع تمكُّن النَّوم منها.

شبَّهها بهيئة عِقْدين منْظومين مِن دُرّ خالص، وفي هذا مِن التَّحسين وتزيين المُشبَّه ما فيه.

وفي قوله:

شَـكَتْ إشْـرافَ قَيِّمِهـا عَلَيْهـا ∴ كَمَـا يَشْـكُو الْيَتِـيمُ مِـنَ الْوَصِـيِّ

يُشبِّه هيئة شِكاية تلك النَّاقة سوء قيِّمها عليها، بهيئة شِكاية اليتيم سُوء تصرُّف وصيّه الذي وَجبت عليه رعايته، والقيام بشُؤونه خير قيام، والوجه: هيئة الشِّكاية الحاصِلة مِمَّن يُرتجَى منه النَّفع.

هذا، وقد عبَّر بالماضي في هيئة المُشبَّه: (شكَت) لإبراز تمكُّن الضَّيم منها، كمَا عبَّر بالمُضارع في هيئة المُشبَّه به لإبراز تجدُّد الشِّكاية حينًا بعد حين، ومِن ثَمَّ فالناقة مقْهُورة مغلُوبة.

وفي اختيار لفظ (قيِّمها) دون غيره استعارة تهكُّمية؛ إذ القيِّم مَن يُقيم أمرها أو يكون سَببا في استقامتها، وهو في هذه الصُّورة على خِلاف ذلك، فترى الشَّاعر قد استعار لفظ (القيِّم) لمَن يُهمل ولا يُحْسن القيام، وفي اختيار صُورة اليتيم خاصَّة؛ لأنَّه أكثر حاجة إلى مَن يتعهَّده مِن غيره .

وفي قوله:

أَرَتْـكَ مَحاسِـنا مِنْهـا اخْتِلاسًـا ∴ تُضِـيءُ إضَـاءَةَ الْبَـرْقِ الْخَفِـيِّ

كَتَخْلِيـلِ الأَلُـوَّةِ ثُـمَّ زَالَـت ∴ زَوَال الْفَـيْءِ فِـي ظِـلِّ العَشِـيِّ

يُشبِّه الشَّاعر هيئة إضاءة مَحاسن تلك النَّاقة التي أُريها الشَّاعر منها اختلاسا، وهذا مِن فرْط حُسْنها وبالغ صفائها، بِهيئة إضاءة البرْق الذي يلْمع منه شُعاع نور غير وهَّاج فلا تتأذَّى منه العين، والجامِع: هيئة البريق واللمعان المرغوب فيهما في كلّ، والغرض مِن التَّشبيه تحسين المشبه وتزيينه.

وفي إسْناد فعل الرُّؤية إلى ضمير النَّاقة في قوله: (أَرَتْكَ مَحاسِنا مِنْها) إشارة إلى أنَّ لناقته إرادة كإرادة العُقلاء، كما أنَّ التنكير وجمع الكثرة (محاسن) يُبرزان عظم محاسنها، وفي التَّنكير تلْمح مِن وجه معنى الكثرة، ومعنى النَّوعيَّة التي تشِي بأنَّ لها مَحاسن مِن نوع فريد هو خاصّ بها وحدها مِن وجه آخر.

هذا، والحال في كلمة: (اخْتِلاسًا) يُجسِّد مَدى التَّمنُّع وفرْط التدلُّل عليه، فهي تُريه مَحاسنها لأجل أن يستلب نظْرة خاطفة، هذا فحسب ما تريد الناقة أن تجود به عليه.

هذا، وقد جاء التَّشبيه المُركَّب هنا أيضًا على طريقة التَّشبيه المُؤكَّد الذي يكون في صُورة المَصْدر، وقد ورد ثلاث مرات في هذا الموضع، ومِن ثمَّ فهو يُعدّ السَّمت الأبرز في البناء اللغويّ لتلك الصُّور التشبيهيَّة .

وحُسْن هذا النمط في تصْوير بالغ التَّسوية والتَّقريب بين طرفي الصُّورة التَّشبيهيَّة: (المشبه والمشبه به) حتَّى لكأنَّهما شيء واحد.

وهُنا في قوله: (كَتَخْلِيلِ ٱلأَلُوَّة) يتداخل التَّشبيه، وقد بُني فيه اللاحق على السَّابق، فيُشبِّه الشاعر هنا مقْدار نفاذ ضِياء البرْق الخَفِيّ الذي كان مُشبَّها به هيئة إضاءة مَحاسن تلك النَّاقة، بمقدار نفاذ العُود بين الأسنان، فليس في الإضاءة وهج كريه.

وفي قوله: (ثُمَّ زَالَت زَوَالَ الْفَيْءِ فِي ظِلِّ العَشِيِّ) يُشبِّه سُرعة زوال إضاءة الناقة عن بصَر النَّاظر؛ لأنَّها تتمنَّع عليه، فلا تدعه يطيل نظره إليها .

وهو هُنا يُشخِّص مِن النَّاقة فتاة جَميلة فاتنة تسْحَر مَن يراها، ويُسوِّي بين تصرُّف ناقته، وتصرُّف تلك الفتاة؛ لأنَّ ناقته لها إرادة كالعُقلاء، كما أسلفنا.

أمَّا المُشبَّه به: فهو سُرعة زوال ما كانت عليه الشَّمس لدخول ظلّ العشيّ عليه، وفي هذا مِن تقليل الزَمن اللازم عنه مدى تمنُّع تلك النَّاقة ما فيه.

وفي قوله:

وَيَلْـذَعُ مُهْجَتِـي ذُو الْعَـذْل فِيهَـا ∴ كَلَـذْعِ السَّـوْطِ خاصَـرةَ الْبَطِـيِّ

كَـأنَّ الليـل زِيـدَ إليـهِ لَيـل ∴ مُقِـيمٌ فَاسْـتَمرَّ عَلَـى الشَّـجِيّ

يُشبِّه إبراهيم بن المهديّ الهيئة الحاصِلة لإحراق اللائم قلبه حين يلومُه في حُبّ ناقته الذي تمكَّن مِن قلبه أيَّما تمكُّن، بهيئة لذع السَّوط لجسد الرَّجل، والجامع هيئة الألم البالغ في كلّ.

هذا، وتقديم المفْعول على فاعله في قوله :(وَيَلْذَعُ مُهْجَتِي ذُو الْعَذْل فيها) أمر حَضَّ عليه السِّياق واستدعاه؛ لأنَّ التَّقديم هنا يُبرز عناية الشَّاعر واهتمامه وفرط مُسَارعته إلى ذكْر مَوضع الحَرْق والألَم؛ لأنَّه الأولى دون غيره بالذِّكر.

وفي بِناء الفاعل مِن (ذي) بمعنى صاحِب، مُضافة إلى الاسم (العَذْل)، دون الوصْف الصَّريح كالعاذل مثلا، قصْد إبراز فرْط تمَكُّن الوصْف مِن الموصُوف، حتَّى لكأنَّ العذْل صِفة يتملَّكها.

وفي قوله: (كَلَذْعِ السَّوْطِ خاصَرةَ الْبَطِيِّ) أضاف الشَّاعر على طريقة المَجاز العقليّ اللذع إلى السَّوط للمُبالغة في تصْوير ألم السَّوط على خاصرة البطيء، كما أنَّه خصَّ الخاصرة لكون اللذع لها أشدّ إيلامًا مِن غيره، ثمَّ قيَّد بالإضافة الخاصِرة بالبَطيء الذي يتمكَّن منه السَّوط إشارة لِعلَّة الضَّرب وهو تَخلُّفه عن اللحاق بإخوانه في ميدان القِتال.

وفي قوله:

كَـأنَّ الليـل زِيـدَ إليـهِ لَيـل ∴ مُقِـيمٌ فَاسْـتَمرَّ عَلَـى الشَّـجِيّ

يُشبِّه حال الليل في طُولـه وامتداده عليه، بالهيئة الحاصِلة لليل زِيد إليه ليل آخر مثلـه لكنـه مُقيم يـأبي الرَّحيل عنـه، وهذا مـا كـان سببًا فـي استمراره فـي حُزنـه، ففي التَّشبيه لون مِن التَّخييل، لا يَخفى حُسنه.

فالوصْف (مُقيم) يشِي بأنَّ الليل الذي زيد أثقل على النَّفس مِن الليل الأول؛ لأنَّه ليل لا يرحل، وهذا يعني أنَّ بقاءه فيه إلى غير نهاية، فصُورة التَّشبيه برُمَّتها صُورة للمُبالغة في أوضَح مرأى.

ولا يخْفى أنَّ تنوين: (ليل) أعان الشَّاعر على تصوير طُول هذا الليل وامتداده؛ إذ إنَّ التنوين هنا تلمَح فيه معنى التعظيم والنوعيَّة التي تُبرز أنَّه ليل ذو طبيعة خاصَّة، وقد ألمَحَ الوصف (مقيم) إلى شيء مِن تلك الخصائص الخاصَّة، فالليل على طول الزَّمان يرحل ولا يقيم أبدًا كليل الشَّاعر.

هذا، ويُعدّ وضع التَّشبيه المُركَّب في قالب التَّشبيه المُؤكَّد الذي يكون في صُورة المَصْدر هو السَّمت الأبرز في ذاك البِناء اللغويّ الذي صوَّر سمة تتابع الصُّور التشبيهيَّة في شعر إبراهيم بن المهدي في أكشف صُورة وأبين مرْأى .

****

أمَّا المَوضع الثَّالث الذي تتابَعت فيه التَّشبيهات المُركَّبة، فنُصَوِّره مقْطوعة غزليَّة عدَّتها ثلاثة أبيات، هي قوله:

بَـــدْرٌ إِذَا لَـــبِسَ البَيَـــاضَ تَخَالُـــهُ ∴ كَاليَاسِـمِينَ مُنَضَّـدا فِـي المَجْلِـسِ

وَإِذَا بَـــدَا فِـــي صُـــفْرَةٍ فَكَأَنَّـــهُ ∴ نَسْـرِينُ بُسْـتَانٍ كَـرِيمُ المَغْـرَسِ

وَإِذَا بَـدَا فِـي صُـفْرَةٍ مَـعَ خُضْـرَةٍ ∴ شَبَّهْتُهُ فِي الحُسْنِ طَاقَةَ نَرْجِسِ (١)

(١) الأبيات من بحر الكامل. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي وأخباره ص ١٦٤ .

←←←

يُلْمَح ابتداء أنَّ صُور التَّشبيه المُتتابعة قد وُضِعت في قالب الشَّرط بـ (إذا)، فالشَّرط ـ كَما هُو بَيِّن ـ سَمْت بِناء لفظيّ لتلك التشبيهات.

ويُعدُّ كذلك بِناء تلك الصُّور التَّشبيهيَّة مِن عُناصر مُشتركة: (الياسمين، نسرين، بستان، المغرس، طاقة نرجس) و (البياض، صُفرة، صفرة مع خُضرة) وهو ما يمكن إجماله في أمرين: اللون والرَّيحان، هو السَّمْت الأبرز في ذاك البِناء اللغويّ، فبين عناصر الصُّور الثَّلاث تلاق واضِح، وتآلف بيِّن، ومِن ثَمَّ فإنَّ تلاقي النَّظائر يُترجِم التَّرابط والتَّماسُك في بِنية التَّركيب في أكْمل صُورهما.

ففِي البيت الأوَّل مِن المَقطوعة:

بَـدْرٌ إِذَا لَـبِسَ البَيَـاضَ تَخَالُـهُ ∴ كَاليَاسِـمِينَ مُنَضَّـدا فِـي المَجْلِـسِ

شبَّه الشَّاعر الصَّاحبة بالبدر حُسْنا وضياء، وهو تشبيه مُفرد، وهو قريب مُبتذَل، لكنَّه جعله توطِئة ومِهادا للتركيب، فأوَّل ما يَلقاك هنا حذْف المُسند إليه، الذي يُمْكن تقديره بـ هي أو الصَّاحبة أو نحو ذلك، وهذا ـ وهو أمر مشْهور ـ لإبراز أنَّ تلك الصَّاحبة لا يخطر بالبال سِواها.

وفيه أيضًا يُشبِّه هيئة الصَّاحبة التي تُشبه البدر لفرط حُسْنها وضيائها إذا لبست الثوب الأبيض الذي يزيد في ضِيائها وإشراقها، بهيئة زهْر الياسِمين المُتَّسق بعضه فوق بعض في مكان الجلوس، والجامع هيئة الأمر الجَميل الحسَن بسبب بياضه الناصِع في كلّ.

→→→

كَاليَاسِمِينَ مُنَضَّدا فِي المَجْلِسِ: الياسَمِين فارسي معرب قد جرى في كلام العرب. ينظر: اللسان مادة (يسم) **منضدا:** نضد الشيء جعل بعضه على بعض متسقا. ينظر: اللسان ـ مادة (نضد).

طاقة نرجس: الطاقة: شعبة من رَيْحان أو شَعَر وقوَّة مِن الخيط أو نحو ذلك ، ويقال طاق نعل، وطاقَة رَيْحان. ينظر: اللسان ـ مادة (طوق). النرجِس: مِن الرياحين معروف ، وهو دخيل. ينظر: اللسان ـ مادة (نرجس).

وقوله: (إِذَا لَبِسَ البَيَاضَ) شَرْط يُمثِّل عُنْصرا رَئيسا في بِنية المشبَّه، ومِن ثَمَّ فإنَّه لا يحْصُل الوجه إلا به، وهذا بيِّن؛ إذ يبْدو للنَّاظر أنَّ الشَّاعر علَّق حُصول التَّماثُل بين الهيئتين على تقييد هيئة الصَّاحبة . وهي في موقع المشبَّه . بلبس البياض، وإيثار لفظ: (البياض) هنا دون غيره، لقصْد تصْوير فرْط النَّقاء والصَّفاء في كِساء الصَّاحبة ليجتمع بياض على بياض.

هذا، والحالان في قوله: (مُنَضَّدا فِي المَجْلِسِ) عنصران رئيسان كذلك في بِنية المُشبَّه به لا يحْصُل وجه الشَّبه مِن دونهما، فالتنضيد وكونه في المجْلس قيدان مُعتبران، فلولا هذا التَّفصيل في جانب المُشبَّه به لكان التَّشبيه مُبتذلا، ولم تكن صَنعة الشاعر دقيقة حسنة .

وفي قوله:

وَإِذَا بَـدَا فِـي صُـفْرَةٍ فَكَأَنَّـهُ ∴ نَسْـرِينُ بُسْـتَانٍ كَـرِيمُ المَغْـرَسِ

يُشبِّه هيئة الصَّاحبة التي تشْبه البدر إذا بدَت في كساء ذي صفرة، بهيئة زهر نسرين حسَن المنبت في ثنايا بستان.

فالإضافة: (نسرينُ بستانٍ) مقصُودة، ولها أثَر في التَّشبيه، لأنَّ الشَّاعر يعنيه أن يكون زهر النَّسرين بين أمثاله مِن مُختلف الرَّياحين؛ إذ إنَّ لها بلا شكّ أثرا حسَنا عليه، وفي وصْف زهْر النَّسرين بأنَّه: (كريم المغرس) قيد، يبرز أنَّ الشَّاعر يقصر الشَّبه على نسرين ذي وصْف خاص، وطبيعة تميّزه عن غيره، وهي حُسن المنْبت، ليكون الزَّهر في أجمل هيئة وعلى أحْسَن حال؛ إذ لا يخْفى أنَّ الغرض مِن الإضافة والوصْف هو المبالغة في الحُسْن.

وفي قوله:

وَإِذَا بَـدَا فِـي صُـفْرَةٍ مَـعَ خُضْـرَةٍ ∴ شَـبَّهْتُهُ فِـي الحُسْـنِ طَاقَـةَ نَـرْجِسِ

يُشبِّه هيئة الصَّاحبة التي تُشبِه البدر إذا بدت في كِسَاء اجتمعت فيه الألوان الصَّفراء مع الألوان الخضْراء، بهيئة الشُّعبة من زهر النِّرجس، والجامع الحُسن في كلّ.

****

المبحث الثاني :
بِناء مَعْنى صُورة المُشبَّه به مِن أحداث ماضية

إنَّ بِناء معاني شواهد التَّشبيه المُركَّب في شِعر الخليفة إبراهيم بن المهدي مِن أحداث الماضِي القريب أو البَعيد يعكِس مدى ثقافة الشَّاعر الواسِعة، ويبرز كذلك في صُورة واضحة مدى اطِّلاعه على تاريخ أمَّته، فقد جاء بعضها . كما سنرى . مُقتبسًا مِن قصص القرآن الكريم، وبعضها من أحداث العصْر الجاهليّ، وبعضها قد بناها مِن أحداث ذاتيَّة لمُخاطَبه حدَثت له في الماضي القريب.

أمَّا الموضع الأوَّل فقد اقتبسه مِن قصَّتيْ (آدم ويوسُف) . عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسَّلام . عند قوله في سِياق طلَب العفو مِن المأمون:

إلَـى النَّحْـرِ مِنِّـي مَضْـمُومَةٌ ∴ يَـدَايَ كَمَـا يَفْعَـلُ النَّـادِمُ
عَصَيْتُ وَتُبْتُ كَمَا قَدْ عَصَى ∴ وَتَـابَ إلَـى رَبِّـهِ آدَمُ
فَقُلْ قَوْلَ يُوسُفَ لا تَثْرِبَنَّ ∴ فَقَدْ يَغْفِرُ الْغَافِرُ الرَّاحِمُ (١)

وأمَّا الموضع الثاني فمن قصّة (يوسف) عليه وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة والسَّلام عند قوله:

إنْ أَكُنْ مُذْنِبًا فَحَظِّي أَخْطَأْ ∴ تُ فَدَعْ عَنْكَ كَثْرَةَ التَّأْنِيبِ
قُلْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِبَنِي يَعْـ ∴ ـقُوبَ لَمَّا أَتَوهُ لا تَثْرِيبِ (٢)

وأمَّا المَوضِع الثَّالث فمِن قصّة قيس بن زُهير العَبْسيّ مع:(داحِس والغَبراء)، وقد دَارت تلك الأحداث في العصر الجاهليّ:

---

(١) الأبيات من بحر المتقارب. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي وأخباره ونثره ص ٢٠١.

(٢) البيتان مقطوعة ، عدَّتها هاتان البيتان ، وهما مِن بحْر الخفيف. ينظر: شِعر إبراهيم بن المهدي وأخباره ونثره ص ١٢٢.

فَلا حُيِّيَ الْوَجْهُ الذَّي جِئْتَنا بِهِ ∴ إذا حَيَّتِ الْوَجْهَ الْكَرِيمَ المَجالِسُ
يُشِيمُ بَنِي كَعْبٍ وَما أَنْتَ مِنْهُمُ ∴ كمَا شامَتِ الْغَبْراءُ قَيْسا وَداحِسُ [1]

****

فأمَّا قوله:

إِلَى النَّحْرِ مِنِّي مَضْمُومَةٌ ∴ يَدَايَ كَمَا يَفْعَلُ النَّادِمُ
عَصَيْتُ وَتُبْتُ كما قَدْ عَصَى ∴ وَتَابَ إِلَى رَبِّهِ آدَمُ
فَقُلْ قَوْلَ يُوسُفَ لا تَثْرِبَنَّ ∴ فَقَدْ يَغْفِرُ الْغافِرُ الرَّاحِمُ [2]

ففيه يُبرز بالغ استعطافه للخليفة المأمون . أحسن الله إليه .، تأمَّل قوله الذي يصوِّر فيه هيئته، وهو تجْسيد بليغ يثير في نفْس المأمون معنى العفْو والصَّفح، ويؤكِّد كمال النَّدم وبالغ الشُّعور بالتقصير مع بالغ رجاء الصَّفح.

إِلَى النَّحْرِ مِنِّي مَضْمُومَةٌ ∴ يَدَايَ كَمَا يَفْعَلُ النَّادِمُ

لم يكتف الشَّاعر بقوله الذي يُصوِّر فيه هيئته: (إِلَى النَّحْرِ مِنِّي مَضْمُومَةٌ يَدَايَ)، بل أتبعه بقوله: (كَمَا يَفْعَلُ النَّادِمُ) الذي يبرز كمال ضمّ اليدين إلى النَّحر على الوجه الذي يُبرز النَّدم والرَّغبة في العفو على الوجه الأمثل.

فقوله السَّابق تشبيه مُركَّب لهيئة ضمِّه يديه إلى نحره وما يلزم عن الضمّ مِن الخُضوع والاستكانة، بالهيئة الحاصِلة لفعل النَّادم الرَّاغب في الغُفْران أمام مَن يملك ذلك.

ثُمَّ يأتي قوله:

عَصَيْتُ وَتُبْتُ كما قَدْ عَصَى ∴ وَتَابَ إِلَى رَبِّهِ آدَمُ

---

(١) البيتان مِن بحر الطَّويل. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٦٣.

(٢) لا تثربن: التَّثْريبُ كالتَّأْنيب والتَّعْيِيرِ والاسْتِقْصاءِ في اللَّوْمِ والثَّاربُ المُوَبِّخُ ، يقال: ثَرَبَ وثَرَّب وأَثْرَبَ إذا وَبَّخَ. ينظر: لسان العرب . مادة (ثرب).

فَقُــلْ قَــوْلَ يُوسُــفَ لا تَثْــرِبَنَّ ∴ فَقَــدْ يَغْفِــرُ الْغــافِرُ الــرَّاحِمُ

وفيه ضَرْب دَقيق من الحِجَاج العقلي الذي يجد فيه الشَّاعر سبيلا لنفسه في طلب العفو والصَّفح، فهو هنا يُبرز للخليفة المأمون أنَّه مِن جُملة البَشر الذين يصْدُر مِنهم الزَّلل، ومِن ثمَّ فإنَّك تجده يضيِّق على المأمُون، فلا يجعل أمامه إلا العفو؛ إذ تراه يذكّره بفعل سِيدنا آدم المعْصُوم . عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام . وتوبته.

فإذا كان الله . سُبحانه وتعالى وهذا مُتكأه في الحِجاج . قد قبل توبة سيّدنا آدم . عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام . وهو ممَّن لا يليق على مثلهم صُدور زلل لأنَّهم معصومون، فخليق بمثلي أن تعفو عنه وتصْفَح.

ففي البيت الأوَّل:

عَصَــيْتُ وَتُبْــتُ كمــا قَــدْ عَصَــى ∴ وَتَــــابَ إِلَـــــى رَبِّـــــه آدَمُ

يُشبِّه الهيئة الحاصِلة لحُصُول التَّوبة منه بعد المعْصية، بهيئة توبة سيِّدنا آدم . عليه الصَّلاة والسَّلام . عقب وسْوسة إبليس . لَعنَه الله . له بالأكل مِن الشَّجرة التي نُهي عن الأكل مِنها.

ويلْحظ المُتأمِّل هنا أنَّ الفعل: (قد عصى) جاء مؤكَّدا، لكن ليس الغرض مِن التأكيد هنا تحقيق نسبة العِصْيان إلى سيِّدنا آدم . عليه السَّلام . وإنَّما إقناع الخليفة المأمون . رحمه الله .

بأنَّ مثله الذي لم تكن له العصمة قد يتوقع منه العِصيان والزَّلل.

هذا، وفي تقديم الجار والمجرور على المُسند إليه: (وَتابَ إِلَى رَبِّه آدَمُ) سرّ آخر غير مُراعاة القافِية، وهو إبراز مُسَارعة سَيِّدنا آدم . عليه السَّلام . إلى ربه . سُبحانه .، وأنَّ الالتجاء وإلقاء النَّفس في كَنف الرُّبوبية جاء فور حُصُول العِصيان، فواو العطْف: (عَصَيْتُ وَتُبْتُ، كما قد عصى وَتَابَ) تشِي بأنَّ التَّوبة جامعت المعْصِية، وهذا كلّه مِن شأْنه عدَم المُؤاخذة، وكيف لا والاعتذار عن الذَّنب عقب حُصُوله يُدلّل على بَالغ حِسّ النَّفس وعدم قبولها للشين أو العتب ؟، وهذا يُترجِم كذلك

في صُورة واضِحة أنَّ الزَّلل بعيد عن طبيعتها، وفي هذا ما فيه مِن حُسْن الاعتذار، وجميل الاستعطاف.

وفي البيت الثاني:

فَقُــلْ قَــوْلَ يُوسُــفَ لا تَثْــرِبَنَّ ∴ فَقَــدْ يَغْفِــرُ الْغَــافِرُ الــرَّاحِمُ

يُشبِّه الهيئة الحاصِلة للقول المُوجَّه للخليفة المأمون على طريقة التضرُّع والدُّعاء، بهيئة قول سيِّدنا يوسف . عليه السَّلام . لإخوته عند قدومهم عليه نادمين: لا تثريب، والذي يُبرز الصَّفح والغُفران مُفوِّضا كلّ ذلك لله . عزَّ وجلَّ . وهو أهل الرَّحْمة والمغفرة.

هذا، وقد تتابعت الصُّور التَّشبيهيَّة هُنا، والتتابع مِن سمات تشبيهات الشَّاعر البلاغيَّة كَما أسْلفنا، لكن التَّتابُع هنا ليس السَّمت الأبرز، ومِن ثمَّ فقد حَسُن في رأيي وقوعها في هذا الموضِع.

****

وفي قوله لما دخل على الخليفة المأمُون :

إِنْ أَكُــنْ مُــذْنِبًا فَحَظِّــي أَخْطَــأْ ∴ تُ فَــدَعْ عَنْــكَ كَثْــرَةَ التَّأْنِيــبِ

قُــلْ كَمَــا قَــالَ يُوسُــفُ لِبَنِــي يَعْــ ∴ ــــقُوبَ لَمَّــا أَتَــوهُ لا تَثْرِيــبِ

تقاربَت فيه دَلالة صُورة التَّشبيه المُركَّب مع الصُّورة السَّابقة، لكن اختلفت . كما هو بادٍ . بِنْيتها، وطريقة نَظْمها، وذلك لاختلاف هيئة المعنى في نفسه.

ففي إيثار أداة الشَّرط (إنْ) التي تُستخدم فيما هو مَشْكوك بوقوعه في قوله: (إِنْ أَكُنْ مُذْنِبًا فَحَظِّي أَخْطَأْت) يُبَرِّأ الشَّاعر سَاحَته مِن اللوم؛ إذ يُشتمّ في الشَّرط هنا معْنى الفرْض والتقدير، وهو حَسَن إلى غير غاية؛ لأنَّ الشَّاعر لم يُقرّ بذنبه، ولم يُنْكره فيوغِر صدْر المُخاطَب أو يُوعزه إلى الجِدَال، وأكاد ألْمَح في هذا عزّة نفْس الشَّاعر فهو مع كونه في مقام المُخطِيء إلا أنَّه يَستنكف أن يسمع مِن المأمون ما يُؤذيه، ولذا تراه أتبع أُسلُوب الشَّرط بقوله: (فَدَعْ عَنْكَ كَثْرَةَ التَّأْنِيبِ).

وأمَّا أُسلُوب الأمر في قوله: (فَدَعْ عَنْكَ كَثْرَةَ التَّأنِيبِ) فهو مِن الأدنى للأعلى، ومِن ثمَّ فهو يحمل في ثناياه معنى الرَّجاء، وفيه عَدَّى الفِعل بحَرف الجرّ: (عَن) الذي يُفيد المُجاوزة، وذلك لغرض تنْزيه المُخاطَب عن التَّأنيب الذي لا يَليق بالنّفوس الكريمة، ففيه مِن حُسْن الأدب مَع المُخاطَب ما لا يَخْفى.

أمَّا صُورة التَّشبيه المُركَّب في هذا الموضِع:

قُلْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِبَنِي يَعْـ ∴ ـــقُوبَ لَمَّـــا أَتَـــوهُ لا تَثْرِيـــبِ

فالمشبَّه به هنا أيضًا: هيئة قول سيِّدنا يوسف . عليه السَّلام . لإخوته عند قدومهم عليه نادمين لا تثريب، والجامِع: الهيئة الحَاصِلة للقول المُشتمِل على الصَّفح والعفو والغفران في كلّ.

وحين تنْظر في بِنية هذا التَّشبيه وبنية التَّشبيه السَّابق:

فَقُـلْ قَـوْلَ يُوسُـفَ لا تَثْـرِبَنَّ ∴ فَقَـــدْ يَغْفِـــرُ الْغَـــافِرُ الـــرَّاحِمُ

تجد أنَّه ذكر هنا المقول إليهم: (لبني يعقوب)، وقد عبَّر بخِطاب الإعراض لا الإقبال؛ إذ نسبَهم إلى أبيهم: (بني يعقوب)، حتَّى لا يقع في ظنّ المُخاطَب، وهو المأمُون، أنَّ العفو حصَل بسبب ما بينهم مِن قرابة شديدة، أو لإبراز أنَّ العفو حَصل مع ما كان في نفس يوسُف . عليه السَّلام . قبل العفو مِن الألم والضِّيق تجاههم.

كما تجد أنَّه اشتمل على ظرْف القول: (لما أتوه) وهو في موقع الجُملة الاعتراضية، إذ جاء الاعتراض . كما ترى . بين فعل القول ومقُوله: (قُلْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِبَنِي يَعْقُوبَ . . لا تَثْرِيب) فأفاد تقييد النُّطق بالعفو وتخصيصه بوقت الإتيان خاصَّة، ليُبرز أنَّ كمال الاعتذار يتحقَّق بالإتيان، وأنَّ إتيانه يُجسِّد بالغ ندَمه، وفَرْط اعتذاره، وحُسْن التماسه الصَّفح والعفو والغُفْران .

هذا، ومُقتضى الظَّاهر هُنا أن يُعَجِّل الشَّاعر بمَقُول القول: (لا تَثْرِيب) لأنَّه بيت القصيد، لكن التعجيل به يُفَوِّت على الشَّاعر كثيرا مِن المقاصِد كما تَرى، كَما أنَّ تأخير مقول القول والتَّعجيل بما سِواه يجعله يدخل على النَّفس دخول المأنوس المُنتظر،

فالبيت يُترجم عقل الشَّاعر، وحُسْن ضبطه لمعانيه، فلا تمرّ المَعاني عند إبراهيم بن المهدي حتَّى يتلقَّفها العَقل أولا، ويكون سُلطانا عليها [١].

هذا، وتجد الشَّاعر في هذه الصُّورة قد بناها على التَّشبيه المُرسَل الأداة: (قُلْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لبني يعقوب . .)، أمَّا الصُّورة السَّابقة فقد بناها في قالب التَّشبيه المُؤكَّد الذي يأتي في صُورة المَصْدر: (فَقُلْ قَوْلَ يُوسُفَ لا تَثْرِبَنَّ . .) لتكون هيئة المُشبَّه به الحاصِلة قول سيِّدنا يوسُف . عليه السَّلام . ذاته، ومِن ثَمَّ فالتعبير بالمَصْدر هنا أبلَغ من التعبير بلفظ الماضي.

وقوله في الموضِع السَّابق: (لا تَثْرِبَنَّ فَقَدْ يَغْفِرُ الْغافِرُ الرَّاحِمُ) مُقتبس مِن قوله . عزَّ شأنُه . (**قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**)[٢] فيُحْسب لهذا الموضع امتداد موضع الاقتباس عن الموضع الآخر .

هذا، وتبْدو صَنْعة الشَّاعر في هذين المَوضِعين في قُدرته على استدعاء ما حَدَث بين سيِّدنا يوسُف . عليه السَّلام . ليكوِّن منه هيئة المُشبَّه به، مع تحْقيق الانسِجام والتناغُم التام بين الهيئتين: هيئة الحاضر، وهيئة الماضي البعيد، فهو إذ ذاك يعايش زمنا بعيدا غابرا ويحاول بعث الحياة في أحداثه مرَّة أخرى، وقد أعانه على ذلك كون هيئة الماضِي الغابر محفوظة في كتاب الله الخالد، فهي حيَّة لم تخمد بحال، ولنْ.

****

وفي قوله:

فَـلا حُيِّـيَ الْوَجْـهُ الـذَّي جِئْتَنـا بِـهِ ∴ إذا حَيَّـتِ الْوَجْـهَ الْكَـرِيمَ الَمجـالِسُ

---

(١) ينظر هذا الموضع في: بلاغة الامتداد بالاعتراض في شعر الخليفة المغني إبراهيم بن المهدي للباحث في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط . مجلة علمية متخصصة محكمة . ١ / ٢٧٨ العدد الأربعون . ١٤٤٢ هـ . ٢٠٢١ م .

(٢) سُورة يوسُف: آية ٩٢.

يُشِـيمُ بَنِـي كَعْـبٍ وَمـا أَنْـتَ مِـنْهُمُ ∴ كمَا شامَتِ الْغَبْراءُ قَيْسا وَداحِسُ (١)

يُشبِّه إبراهيم بن المهديّ الهَيئة الحَاصلة لدخُول المُخاطَب المَهجُو في عداد قبيلة بني كعب شكلا، وخُروجه منهم حقيقة بسبب عدم مُشابهته لهم في كريم الطَّبائع، وجميل المَحاسن، بالهيئة الحَاصِلة لدخول أمر الغبراء وداحس، وهما فرسا رهان، في حيِّز اهتمام قيس بن زهير العَبْسيّ، وانشغاله بهما انشغال المَرء بالشَّيء المُهمّ، مع كونهما لا يستحقان ذلك، والجامِع الهيئة الحاصلة لدخول الخارج عن حقيقة الشَّيء فيه، والغرَض مِن التَّشبيه تقْبيح المُشبَّه، وتحقيره، والازدراء به، كما هو بادٍ.

فتبدو هنا صَنعة الشَّاعر وحُسْن سَبْكه في إيجاد التَّشابه بين هيئتين مُتباينتين، إحداهما وهي هيئة المشبَّه به، قد بُنيت على حَدَث مِن أحداث التَّاريخ الغابرة المَشهُورة.

****

وبعد،،، لقد كان لهذه التَّشبيهات المُركَّبة في هذا الموضع مَذاق خاصّ، إذ يتبدَّى فيها سُهولة السَّبك وحُسنه، وفيها كذلك حُسْن استدعاء للأحداث الماضية، فقد وفق الشَّاعر أيَّما توفيق في الرَّبط بين هيئات الأحداث التي اختلفت أزمانها وتباعدت.

---

(١) يُشيم: الشِّيمةُ: الخُلُقُ ، والشِّيمةُ الطبيعة . . وانْشام الشيءُ في الشيء ، وتَشَيَّم فيه ، وتَشَيَّمه: دخل فيه. ينظر: لسان العرب . مادة (شيم).

داحس والغبراء: اقترن اسم (قيس) بهذه الحرب الشهيرة التي يتناقل الناس قصصها الطريفة حتى اليوم ، وهي حرب ثارت بين (عبس وذبيان) بسبب اختلاف على سباق خيل كان قد تراهن عليه حذيفة بن بدر بن فزارة سيد ذبيان ، وقيس بن زهير ، اشتركت فيه خيار خيل قيس وحذيفة ، وفي مقدمتها داحس والغبراء والخطار والحنفاء. وقد ادَّعى كلّ واحد مِن المتنافسين أنَّ فرسه كان السَّابق ، وأنَّه هو الكاسب للرهان . . وانتهى النزاع الى ما ينتهي إليه كل نزاع من هذا القبيل ، وهو الحرب .

وهي حرب استمرت سنين ، قتل فيها حذيفة بن بدر وعدة رؤساء ، واشركت فيها شيبان وضبة وأسد وغطفان وقبائل أخرى ، كما ساهم فيها ملك هجر ، وامتدت إلى أن اتصلت بالإسلام ، ولم تنته إلا بتوسط الرؤساء حيث سوّيت بدفع الديات ، وبإنهاء تلك الحرب التي شغلت تلك القبائل ، وأقلقت الأمن لذلك السبب التافه على زعم قول الرواة. ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . د / جواد علي ١ / ٢٨٧٥ ط: جامعة بغداد . ط: ثانية . ١٤١٣ هـ . ١٩٩٣ م.

المبْحث الثَّالث :

وَضْع التشبيهات مَوضِع المثَل

لا يَتأتَّى لعاقل أدنى شكّ في القيمة البلاغيَّة لبِناء المَعاني في قالب الأمثال البلاغيَّة التي تعْتمد على الصُّورة البيانيَّة بعامَّة، والتَّشبيه بخاصَّة؛ إذ يرى المُتأمِّل في ذاك القالب قُدْرة عجيبة لا تُضارع على تَصوِّر المَعاني وتوضيحها أتمّ تصوير؛ ذلك لأنَّ وضعها موضع الأمثال يحصُل عنه انتقال المعاني الغريبة في تصوُّرها، وكذلك الصُّور العقلية المعنويَّة في صُورة قريبة أو مَحْسوسة أو مشاهدة، كأبلغ ما تكون، وأوضح، ومِن ثَمَّ فإنَّ التَّشبيهات المُركَّبة التي تتَّسم بهذا إذا وُضعت في الميزان في حَذْو واحد مع غيرها مِن صُور التَّعبير الأخرى كانت هي الأبلغ والأجدر على كَشْف ونقْل وإحياء تلك المَعاني، فهو . في ظَنِّي . قالَب بلاغيّ فريد يبْعث الرُّوح والحياة معًا، في تلك المعاني التي باتت كثيرا مُنطوية على نفْسها، بعيدة عن إدراك كامل تصوُّرها في أذهان المُتلقِّين.

أبرز العلَّامَة الزَّمخشريّ (ت ٥٣٨ هـ) ـ رَحِمَه الله ـ أثر المثل في جلاء المعاني بقوله: " ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنَّظائر شأن ليس بالخفيّ في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتَّى تُريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن، والغائب بأنَّه مُشاهد . . " (١)

ويُؤكِّد ذلك أبو حيَّان (ت ٧٤٥ هـ) . رَحِمَه الله . بقوله: " المقصُود مِن ذكر المَثل أنَّه يؤثِّر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشَّيء في نفسه؛ لأنَّ الغرض مِن ضرْب المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشَّاهد، فيتأكَّد الوقوف على ماهيته، ويصير الحسّ مطابقا للعقل " (٢) .

---

(١) الكشاف ١ / ٧٢.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ١ / ٢٠٧.

ولقيمة المَثل، وأنَّه مِن أهمّ آليات التعبير تجد البلاغيين يفردونه بخصائص أُسلوبية لا تجتمع جُملة في غيره، من ذلك قولهم: " يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره مِن الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المَعنى، وحُسْن التَّشبيه، وجَودة الكناية، فهو نهاية البلاغة " (١)، ومِن أجلّ ما في المثل، وأمتع، أنَّه " يخاطب الفطْرة بمنطقها القريب المفْهوم " (٢)

هذا، ولقد بدَت قُدْرة الخليفة المُغنِّي (إبراهيم بن المَهْديّ) على سَبْك المعاني العقليَّة والمُتخيلة في صُور أكثر وضُوحًا، وهي مُكْنَة لا تكون لكلّ أحد مِن آحاد الشُّعراء أو أصحاب البيان الفصيح، بل يُؤتاها صاحِب الفطْرة الصَّافية، والذَّوق السَّليم، والإحْساس الصَّادق، والقُدْرة البالغة علَى تحْويل الأشياء ونقْلها مِن حَال إلى حال، فتراه يُريك الأوهام شاخِصة حيَّة أمام عينيك.

لقد صَوَّرت سمة وضْع التَّشبيهات المُرَكَّبة مَوضِع المَثَل في شِعر الخليفة المُغنِّي (إبراهيم بن المَهْديّ) في عدَّة مواضع مِن ديوانه، وقد تنوَّعت سياقاتها الشِّعرية، وذلك على النَّحو الآتي :

الموضع الأول جاء في سِياق الحِكمة عند قوله:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقاربُهُ ∴ عَنِ الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفاعِيهِ

كَالسَّيْلِ يَجْرِي وَلا يَدْرِي بِهِ ∴ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جاءَ ولا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ (٣)

الموضع الثاني جاء في سياق الحديث عن جفاء الصَّاحبة عند قوله :

وَقَدْ تَلِينُ بِبَعْضِ القَوْل تَبْذُلُهُ ∴ وَالْوَصْلُ فِي جَبَلٍ صَعْبٍ مَراقِيه

---

(١) مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني . تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ١ / ٦ . ط: دار المعرفة . بيروت .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥ / ٣٠٥٠ . ط: دار الشروق . بيروت . ١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٣ م.

(٣) البيتان من بحر البسيط. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي وأخباره ص ٢٤٢.

كَـالْخَيْزرانِ مَنِيعـاً مِنْـكَ مَكْسَـرُهُ ∴ وَقَـدْ يُـرَى لَيِّنًـا فِـي كَـفِّ لاوِيـه
فَتلْـكَ هَـمُّ فُـؤَادٍ أَنْـتَ صـاحِبُهُ ∴ لَـوْ أَنَّهـا مَـرَّةً كانَـتْ تُجازِيـه
وَإِنَّ فِـي طُولِ مـا ضَنَّتْ عَلَيْـهِ لمَـا ∴ يُسْـلِيهِ لَـوْ أَنَّ شَـيْئاً كَـانَ يُسْـلِيهِ (١)

الموضع الثَّالث جاء في سياق التزهيد في الدُّنيا عند قوله:

وَمَـا المَـرْءُ فِـي دُنيَـاهُ إِلَّا كَهَـاجِعٍ ∴ رَأَى فِـي غِرَارِ النَّـومِ أَضْغَاثَ أَحْلَامِ (٢)

الموضع الرَّابع قوله في صدر مقطوعة، عدَّتها ثلاثة أبيات:

أَبَـا قَاسِـمٍ إِنِّـي أَرَاكَ صَـبَابَةً ∴ كَأَنَّـكَ مِـنْ لَحْمِـي خُلْقِـتَ وَمِـنْ دَمِـي
وَإِنِّـي لأَهْـوَى أَنْ أُرِبَّ صَـنِيعَةً ∴ إِلَيـكَ بِـآلاَءٍ كِـرامٍ وَأَنْعُـمِ (٣)

الموضع الخامِس قوله في صدر مقطوعة، عدَّتها خمسة أبيات، وقد جاءت في عتاب بني العبَّاس:

وَإِنِّـي وَوَاهِـي مُلْكِكُـمْ مثْـلَ سـائق ∴ طَلِيحـا يُزَجِّيهـا عَلَـى الْأَيْـنِ رَاكِـبُ
إذا صَـدَقَتْنِي الـنَّفْسُ عَـنْكُمْ تَقُـولُ لِـي ∴ أَتَـدرِي هَـداكَ اللهُ مَـنْ ذا تُعاتِـبُ (٤)

****

فأمَّا قولُه:

مَـنْ نَـمَّ فِـي النَّـاسِ لَـمْ تُـؤْمَنْ عَقاربُـهُ ∴ عَـنِ الصَّـدِيقِ وَلَـمْ تُـؤْمَنْ أَفَاعِيـهِ
كَالسَّـيْلِ يَجْـرِي وَلا يَـدْرِي بِـهِ ∴ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جاءَ ولا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ (٥)

---

(١) الأبيات من البسيط. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٤٤.
(٢) البيت من بحر الطويل. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢١٣.
(٣) البيتان من بحر الطويل. شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٠٣.
(٤) البيتان من بحر الطويل. شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٠١.
(٥) نمَّ في الناس: النمّ: رَفْع الحديثِ على وجه الإشاعةِ والإفْسادِ ، وقيل تَزْيينُ الكلام بالكذب . . والنميمةِ نَقْلُ الحديث مِن قومٍ إلى قوم على جهة الإفْسادِ والشَّرِّ ، ونَمَّ الحديثَ نقَلَه ، ونمَّ الحديث إذا ظهر. ينظر: اللسان . مادة (نمم). أفاعيه: قال الليث: الأفعى لا تنفع منها رُقْية ولا ←←←

فقد جاء في سِياق الحِكْمة، وفيه يتحدَّث عن النَّميمة، ويبرز بالغ خَطَرها، فالاستعارة التَّصريحيَّة في قوليه: (لَمْ تُؤْمَنْ عَقاربُهُ) (وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفاعِيهِ) تُبْرز بالغ أثر النَّميمة القبيح في النَّاس، في صُورة لا تخطئها عَين؛ إذ شبَّه الشَّاعر أثر نقل الحديث في النَّاس على جهة الإفْساد بلَسع العقارب مَرَّة، وبلَدغ الأفاعي تارة أخرى، وهذه . كما ترى . صُورة جزئية، أعانت الشَّاعر على رسْم الصُّورة الكليَّة مقصود الحديث .

أمَّا الصُّورة الكليَّة التي بُني عليها البيتان، فتشبيهه الهيئة الحاصِلة لبالغ أثر النَّميمة، وعدم الاطمئنان إلى النَّمام؛ لأنَّ خطَره فاش، يُصيبك مِن حيث لا تُدرك جهته، بِهيئة السَّيل الجارف الذي يجْري ماؤه، دُون أن يُدرك أحَد مكان مَجيئه أو مَوضع منْبعه، والوجه الجامع بينهما: هيئة الشَّيء تُصيبك آثاره المُدمِّرة من دون أن تعلم جهته، وفي هذا مِن إبراز بالغ الخَطر مِنهما عليك (النَّمام والسَّيل) ما فيه.

يلْحَظ المُتأمِّل لهذه الصُّورة صنعة الشَّاعر في تصوير الأمر المعنوي، وطريقته في الإبانة عن هذا المعنى، فقد نقله أمام عينيك إلى صُورة حِسيَّة بصريَّة، وقد استعان في رَسْمها بعُنصر (الحَرَكة)؛ إذ تراه نقل لك صورة السَّيل الجارف وهو يجْري، فعُنصر الحرَكة كذلك يُبرز شَأو الشَّاعر البعيد في صياغة هذه الصُّورة البديعة.

يقول العقَّاد . رحِمَه الله .: " إنَّما التَّصوير لون وشكل ومعنى وحركة، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه؛ لأنَّ تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر، ولا يتوقَّف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسِّه" (١)

←←←

تِرْياقٌ ، وهي حَيَّة رَقْشاء دقيقة العُنق عريضةُ الرأْس ، زاد ابن سيده: وربما كانت ذات قَرْنَين ، تكون وصفا واسما ، والاسم أَكثر ، والجمع أَفاعٍ. ينظر: اللسان . مادة (فعا).

(١) ابن الرومي حياته من شعره لعباس محمود العقاد ص ٢٣٧ . ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة . القاهرة . مدينة نصر . من دون تاريخ.

كذلك، فإنَّ " وصف الحركة . كما يقول البلاغيون . من بديع التشبيهات وجليلها؛ لأنَّ التقاطها وهي جادَّة في حركتها واضطرابها دليل المقدرة والوعي وقوَّة الملاحظة"(١)

هذا، وفي إيثار جمْع الكثرة في بِنية المَشبَّه مَرَّتين: (عقاربه، أفاعيه) دَلالة على بالغ أخْطار أصْحاب النَّميمة، ما لا يَخْفى.

****

وفي مقطوعته التي قوامها أبيات أرْبعة، يصوِّر الشَّاعر جَفاء الصَّاحبة مع الصَّاحب فيقول :

وَقَدْ تَلِينُ بِبَعْضِ القَوْل تَبْذُلُهُ ∴ وَالْوَصْلُ فِي جَبَلٍ صَعْبٍ مَراقِيه

كَالْخَيْزرانِ مَنِيعا مِنْكَ مَكْسَرُهُ ∴ وَقَدْ يُرَى لَيِّنا فِي كَفِّ لاوِيه

فَتَلْكَ هَمُّ فُؤَادٍ أَنْتَ صاحِبُهُ ∴ لَوْ أَنَّها مَرَّةً كانَتْ تُجازِيه

وَإِنَّ فِي طُولِ ما ضَنَّتْ عَلَيْهِ لَما ∴ يُسْلِيهِ لَو أَنَّ شَيْئا كانَ يُسْلِيه (٢)

ففي هذه الأبيات يُشبِّه الشَّاعر هيئة تلك الصَّاحبة في بذلها لصاحبها بعض الحديث اللين، مع عدم حُصُول الوصْل المرْغوب فيه، فهي تبذل له الشَّيء اليسير، وتمنع عنه الشَّيء الجليل الذي يُطمَع في مثله، بهيئة عود الخيزران الأملس الذي يبدو غضًّا لينا لكن يصعب كسره، والجامِع: هيئة الشيء له حالان مُتناقضان: ففي صورة المشبه (هيئة الصاحبة): بذْل اليسير ومنْع العظيم، وفي المُشبَّه به (هيئة عود الخيزران): لين الملْمس مع استحالة الكَسر.

---

(١) التصوير البياني ص ٦٦.

(٢) **صعب مراقيه:** ورَقِيَ إلى الشيءِ رُقِيّاً ورُقُوّاً وارْتَقى يَرْتَقي وتَرَقَّى صَعِد . . والمَرْقاة والمِرْقاة الدرجة واحدة من مَراقي الدرَج. ينظر: لسان العرب . مادة (رقا).

كالخيزران: قال ابن سيده: الخَيْزُرَانُ نبات لَيِّنُ القُضْبَانِ أَمْلَسُ العيدان لا ينبت ببلاد العرب ، إِنَّما ينبت ببلاده الرُّوم . . وقيل: كلُّ عُودٍ لَدْنٍ مُتَثَنٍّ خَيْزُرانٌ. ينظر: اللسان . مادة (خزر).

فما أجمَل هذا التَّشبيه ! الذي جسَّد به الشاعر فعال تلك الصَّاحبة في أكشف مرأى؛ إذ نقل فيه . كما هو باد . اجتماع صُورة البذل والمَنع في آن واحد، فمزية الشَّاعر تكمن هنا في طريقة الإبانة عن هذا المَعنى، وغَرَض البلاغيّ الأهمّ والأعْظَم الكشْف عن ذلك، كَما يقول شُيوخنا الأكارم.

ففي قوله: (وَقَدْ تَلِينُ بِبَعْضِ القَوْلِ تَبْذُلُهُ) تحمل فيه (قد) معنى التقليل، وهو يتناغى مع خلاق تلك الصَّاحِبة التي لا تبذل لعاشقها ما يَطيب به فؤاده، ثمَّ إنَّ قوله: (وَالْوَصْلُ فِي جَبَلٍ صَعْبٍ مَراقِيه) كناية عن بالغ الجفاء، واستحالة بلوغ الوصال، وفي قوله:

فَتلْكَ هَمُّ فُؤَادٍ أَنْتَ صاحِبُهُ ∴ لَوْ أَنَّها مَرَّةً كانَتْ تُجازِيه

يُخاطب نفْسه على طريقة التجريد، مُشيرا إلى تلك الصَّاحبة، وفي الإشارة استحضار لخلاقها وجفائها ومنعها ما فيه إحياؤه، والمُسنَد (همّ فؤاد) يُترجم بالغ ما تفْعله تلك الصَّاحبة مِن صَدّ وهُجْران، وخصّ الفؤاد وهو جزء منه، وأراد نفسه، بدليل الوصف بقوله :(أنت صاحبه)؛ لأنَّ الفؤاد هو محل الحُزن والهمّ، وقوله: (لَوْ أَنَّها مَرَّةً كانَتْ تُجازِيه) فيه مِن تصْوير تَمنِّي الوصَال ما فيه، وفيه أيضًا مِن تِبيان بالغ الجَفاء ما لا يَخْفى، فإيثار أداة التمنِّى: (لو) يكشِف عزَّة المُتمنَّى، وكأنَّه الشَّيء الذي لا يكون.

فأمَّا قوله في خِتام المقطوعة:

وَإنَّ فِي طُولِ ما ضَنَّتْ عَلَيْهِ لمَا ∴ يُسْلِيهِ لَوْ أَنَّ شَيْئاً كانَ يُسْلِيهِ

فهو على طريقة الفرض والتَّقدير، والغرض منه المُبالغة في تصوير بالغ حبّ تلك الصَّاحبة، وأنَّه حُبّ قد تمكَّن منه، ومِن ثمَّ فإنَّه يستحيل أن يسلَى، مَهْما بلغت في مَنْعها، أو بالغت في صَدّها وهُجرانها؛ ذلك لأنَّ طُول المنْع مِن شأنه أن تسْلى به النَّفس، لكنَّه لا يسْلى؛ إذ يستحيل أن يكون هُناك ما يسْلي عن حبّها، وفي هذا مِن تِبيان تمكُّن حبّها مِنه ما فيه.

****

وأمَّا قوله . وهو بيت وحيد .:

وَمَــا المَــرْءُ فِــي دُنيَــاهُ إِلَّا كَهَــاجِعٍ ∴ رَأَى فِي غِرَارِ النَّومِ أَضْغَاثَ أَحْلَامِ (١)

ففيه يُبرز حقيقة الدُّنيا ويُهوِّن مِن شأنها، فيشبِّه حال المَرء في هذه الدُّنيا، وأنَّه لا يلبث فيها طَويلا، بهيئة مَن نام نومَة خفيفة، فرأى في منامه ما لا يصحّ تأويله، لقصره واختلاطه، والجامع: هيئة الزَّمن اليسير الذي تختلط فيه الأعمال في كلّ، فالغرض الأبرز لهذه الصُّورة: التأكيد على قصر مدَّة اللبث، اللازم عنه هوان تلك الدُّنيا، وأنَّه ينبغي لكل أحد ألا تكُون الدنيا عنده مرْغوبة، وذلك لحقارتها، ولهذا جاء المعنى في ثوب القصر الذي مِن شأنه هنا التأكيد على هذه الحقائق، فالشَّاعر أفرغ المَعنى في هذه الصُورة المُقرِّرة حتَّى لا يترك في النّفوس شيئا مِن مُحفِّزات الطَّمع في الدُّنيا، أو الرُّكون إليها.

هذا، ويُلحظ في هذه الصُّورة إمكان تشبيه كلّ جزء مِن أجزاء المُشبَّه بما يُقابله مِن أجزاء المُشبه به لكنه غير مراد، فالدنيا غِرار نوم، وأعمال المَرء فيها تلك الأضغاث الباطلة التي تُرى.

****

ومثله في تبيان شدَّة القرب، وإظْهار فرْط الحُبّ، قوله في خِطاب أحَد مُعاصريه:

أَبَــا قاسِــمٍ إِنِّــي أَرَاكَ صَــبَابَةً ∴ كَأَنَّكَ مِنْ لَحْمِي خُلْقِتَ وَمِنْ دَمِي

---

(١) **هاجع:** الهُجُوعُ النوْم ليْلاً ، هَجَعَ يَهْجَعُ هُجُوعاً: نامَ ، وقيل: نام بالليلِ خاصّة ، وقد يكون الهجُوعُ بغير نوم . . والتَّهْجاعُ النومةُ الخفيفةُ. ينظر: اللسان . مادة (هجع).

غرار النوم: الغِرارُ النَّوم القليل ، وقيل: هو القليل من النوم وغيره . . والغِرار نُقصانُ لبن الناقة، وفي لبنها غِرارٌ ، ومنه غِرارُ النومِ قِلّتُه. ينظر: اللسان . مادة (غرر).

أضغاث أحلام: الرُّؤْيا التي لا يصحُّ تأْويلها لاختلاطها ، والضِّغْثُ الحُلْم الذي لا تأْويل له ، ولا خير فيه. ينظر: اللسان . مادة (ضغث).

وَإِنِّـــي لأَهْـــوَى أَنْ أُرِبَّ صَـــنِيعَةً ∴ إليْـــكَ بـــآلاَءٍ كـــرامٍ وَأَنْعُـــمِ (١)

يُشبِّه الهيئة الحاصلة لفرْط عِشقه لممْدوحه، بالهيئة الحاصِلة لعِشقه الفِطريّ وميله الشَّديد لمَن يُشابهه في مَادة الخَلْق: (اللحم والدَّم) ذاتها؛ ذلك لأنَّه جزء منه، والجامع: هيئة المَيل الشَّديد، وشِدَّة الوَجْد في كلّ.

استهلَّ الشَّاعر بِناء صُورة المُشبَّه بحذف أداة النِّداء: (أَبَا قاسِمٍ)، وفي الحذف دَلالة على بالغ القُرب وفرْط المَودَّة، مع ما في الاستهلال بالنِّداء مِن بالغ التَّنبيه، وتحريك ذِهن المُخاطَب لمضمون الخبر بعده، مع ما في أسلوب النِّداء . ولاسيَّما بالكُنية . مِن فرط التحبُّب، وإظْهار الميل، والتَّعظيم ما فيه، ثُمَّ أتبع أُسلُوب النِّداء بالخبر المُؤكَّد: (إنِّي أَرَاكَ صَبَابَةً) لتقرير مضْمونه في نفْس مُخاطَبه، وقوله: (كَأَنَّكَ مِنْ لَحْمِي خُلْقِتَ وَمِنْ دَمِي) في بِنية المشبَّه به، مُبالغة محْمودة، الغرض منها المُبالغة في إبراز شدَّة الوَجْد بينهما، وقد قرَّبها إلى القَبول والإمكان وَضْعها في قالب التَّشبيه.

هذا، ومِن أمارات المودَّة بذْل صَنائع المعْروف، ومِن ثَمَّ جاء قوله عقِب صُورة التَّشبيه:

وَإِنِّـــي لأَهْـــوَى أَنْ أُرِبَّ صَـــنِيعَةً ∴ إليـــكَ بـــآلاَءٍ كـــرامٍ وَأَنْعُـــمِ

---

(١) صَبابة: الصَّبابة: الشَّوْقُ ، وقيل: رقته وحرارته ، وقيل: رقة الهوى. ينظر: لسان العرب . مادة (صبب). **أرب صنيعة:** أرب: من ربَبت النِّعمة، إذا أتممتَها. ينظر: الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد . تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ص ٥٣٦ . ط: دار الجيل . بيروت . ط: أولى . ١٤١١ هـ . ١٩٩١ م.

وأرب: أكثر وأديم. ينظر: هامش رقم (٢) في: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٠٣.

الصَّنيعةُ: ما اصْطُنِعَ من خير ، والصَّنِيعةُ: ما أَعْطَيْتَه وأَسْدَيْتَه مِن معروف أَو يد إلى إنسان تَصْطَنِعُه بها وجمعها الصَّنائِعُ . ينظر: لسان العرب . مادة (صنع).

وهو خبَر مُؤكَّد أيضًا، وفيه يؤكِّد أنَّ هواه في تقديم صنيعة تامَّة عظيمة إليه، فما أحسَن إيثار الفعل المُضارع: (أرُب) هنا، وتنوين (صَنيعة) كذلك !؛ لأنَّ ذلك أبرز أنَّ الصَّنيعة ستكون تامَّة وافِرة.

فكلّ المَعاني والمُفردات التقت عند تصْوير بالغ محبَّته لهذا المُخاطَب، وتجسيد فرْط العِشق بينهما.

****

أمَّا قوله في صدْر مقطوعة، عدَّتها خمْسة أبيات، جاءت في عتاب بني العبَّاس:

وَإِنِّـي وَوَاهِـي مُلْكِكُـمْ مِثْـلَ سـائق ∴ طَلِيحـا يُزَجِّيهـا عَلَـى الأَيْـنِ رَاكِـبُ

إذا صَدَقَتْنِي النَّفْسُ عَنْكُمْ تَقُولُ لِي ∴ أَتَـدرِي هَـداكَ اللهُ مَـنْ ذا تُعاتـبُ (١)

فيظهر فيه إبراز الشَّاعر للأمر المعنويّ في صُورة مُبصرَة تتكرَّر على مرأى البَصر كلّ حِين؛ فيُشبِّه الهيئة الحاصِلة لوهَن مُلك بني العبَّاس وضَعْفه، وعدم قُدرته على القيام بما يجب، بِهيئة تلك الدَّابة الهزيلة التي اجتمع على حَثِّها على السَّفر، ودفعها على المسير، شخْصان: السَّائق والرَّاكب معًا، وفي هذا مِن تصْوير هزالها وعدم قُدرتها على المَسير ما لا يَخْفى.

هذا، وفي إيثار الشَّاعر لأداة التَّشبيه :(مِثْل) دون غيرها إفادة المُطابقة التامَّة بين هيئة المُشبَّه، وهيئة المُشبَّه به، ومِن ثَمَّ فقد أحسَن الشَّاعر اختيارها في هذا

---

(١) طليحا: الطالِحُ خلاف الصالح طَلَحَ يَطْلُح طَلاحاً فسد . . طَلِحَ البعيرُ يَطْلَحُ طَلْحا إذا أَعيا وكَلَّ ابن سيده ، والطَّلْحُ والطَّلاحة الإعياء ، والسقوط من السفر . . ويقال ناقة طَلِيحُ أَسفار إذا جَهَدَها السيرُ وهَزَلها. ينظر: لسان العرب . مادة (طلح).

يزجيها: التَّزْجِيةُ: دَفْعُ الشيء كما تُزَجِّي البَقَرةُ ولَدَها أَي تَسُوقُه . . وزَجَّى الشيءَ وأَزجاه ساقَه ودَفَعه والرِّيحُ تُزْجِي السَّحابَ أَي تَسُوقُه سَوْقاً رفيقاً. ينظر: لسان العرب . مادة (زجا).

الأين: الإعياء والتعب. ينظر: اللسان . مادة (أين).

السِّياق (سياق الزَّجر والعتاب)؛ لأنَّ هذه الأداة تُترجم هنا بالغ صِدقه، وتبرز أنَّه يُجسِّد حقيقة هذا الواقع المُنكر في هذه الصُّورة المحْسوسة المُبصرة دُون مُبالغة.

وأمَّا قوله عقب صُورة التَّشبيه المُركَّب:

إذا صَدَقَتْني النَّفْسُ عَنْكُم تَقُولُ لِي ∴ أَتَــدرِي هَــداكَ اللهُ مَــنْ ذا تُعاتــبُ

فهو امْتداد لمعنى الازدراء ببني العبَّاس، والتَّقبيح لهم، والحطّ مِنهم، وقد أظهر ذلك ما في الاستفهام الصَّادر عن نفسه، وهي صادقة، : (مَنْ ذا تُعاتبُ ؟) مِن فرْط تهكُّم وتقبيح وسُخْرية.

المبحث الرَّابع :
الجَمْع بين المُتَباينات

مِنْ بين السمات البلاغيَّة للتَّشبيه المُركَّب التي أفْصَحت عنْها شواهد التَّشبيه المُركَّب في شِعْر الخليفَة (إبراهِيم بن المَهْديّ): الجَمْع بين المُتباينات، وهي سمة بلاغيَّة جليلة القدر، وحين تُبصرها في بيان البُلغاء شِعرًا كان أو نثرا فإنَّها بلا شكّ تُترجم ملَكَة الشَّاعر، ومدَى حِذقه ومَقْدرته على إيجاد المُشابهة والوِئام بين هَيئتين مُتباعدتين، وتشِي كذلك بأنَّه صاحِب حسّ قويّ في التَّأليف بين المَعاني، وهذه لا تكون لكلّ أحد مِن أصْحاب البَيان.

فسمة الجَمْع بين المُتباينات[1] إحَدى الأُسُس الدَّالة على قَبول التَّشبيه، والرَّامزة لجودته، والمُؤكِّدة لكون رتبته فوق رُتبة الكثير مِن الأنْماط والصُّور الأُخرى للتَّشبيه عامَّة والمركَّب خاصَّة، فالتَّشبيه الذي يجْمع بين المُتباينات نَمَطه فريد، ومِن ثمَّ فهو يحتاج إلى وعْي وبصيرة نافذة بِطرق التَّلاقي والتشاكُل بين طرفَي التَّشبيه، حتَّي يُمْكن . على فرْط ما بينهما مِن تباعد . أنْ يحدُث التواؤم والتناغم المقْصود.

ثمَّ إنَّ " الجمْع بين المُتباعدات ليس أصلًا لحُسْن التَّشبيه هكذا بالإطلاق، ولكنَّه يكون إذا كان هذا الجمع صحيحًا، مِن ناحية مغزى التَّشبيه والمقصود منه أعني: وجود العلاقة الصَّحيحة القويَّة، ومِن ناحية حِسّ النَّفس بالطَّرفين مَجْموعين، أعني: أن يكون بينهما مُناسبة ومُلاءمة مِن جهة ما يُثيران في النَّفس مِن مَشاعر وأحْوال "[2]

---

(١) تراجع أُسُس جودة التشبيه المبثوثة في ثنايا كتاب: (التصوير البياني) ، فقد بسط لها الشَّيخ . أطال الله عمره ، ونفع به أمة الإسلام . في كتابه حيزا واسعا ، واستطرد . أحسن الله إليه . في سرد الشَّواهد التي تُترجم ذلك.

(٢) التصوير البياني ص ١٤٢.

ومِن ثَمَّ، فإنَّ " الجمع بين المُتباعدات لا يرفع كلّ تشبيه يقع فيه إلى درجة الجودة، ما لم يكن تعانقهما في النَّفس بمقدار تباعدهما في الحسّ، و(عبد القاهر) يبين هذا بيانا كاشفا ويرفض أن تكون العلاقة الذِّهنية التي يلمحها العقل وحده كافية في صحَّة التَّشبيه، ما لم يضف إلى ذلك رؤية الحَدْس والقلب وإدراكه لهذه الصِّلة، يقول في هذا [١]": " واعلم أنِّي لستُ أقول لك إنَّك متى أَلَّفتَ الشَّيء ببعيد عنه في الجنس على الجُملة فقد أصبت وأحسنت، ولكن أقوله بعد تقييدٍ وبعد شرطٍ، وهو أن تصيبَ بين المختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شبَها صحيحا معقولا، وتجد للمُلاءمة والتأليف السَّويّ بينهما مذهبا ، وإليهما سبيلا، وحتَّى يكون ائتلافهما الذي يوجب تشبيهك، مِن حيث العقل والحَدْس، في وضوح اختلافهما مِن حيث العَين والحِسّ " [٢]

هذا، ويُمْكن أن تُمَثِّل هذه السمة البلاغيَّة: (الجمع بين المتباينات)، أو تقْترب مِنها عدّة شواهد لإبراهيم بن المَهديّ، وهي على النَّحو الآتي:

الأوَّل منها قوله:

إنْ كُنْتَ تَنْشَطُ للصَّبوُح فَإنَّه ∴ يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ الأَطْرافِ

وَأَرَى الغْمَامَةَ كَالْعُقابِ مُحَلِّقا ∴ مُسْوَدَّة الأَوْساطِ والأَكْنافِ

طَوْراً تَبُلُّكَ بالرَّذاذ وَتارَة ∴ تَهْمِي عَلَيْكَ بِدَلْوِها الْغَرَّافِ [٣]

الثَّاني قوله وهو بيت وحيد:

يَثُوبُ بِبَادِي النُّصْحِ غِشًّا يُسِرُّهُ ∴ كَمَا خِيضَ بِالسُّمِ الرَّحِيقُ المُشَعْشَعُ [٤]

---

(١) التصوير البياني ص ١٤٣.

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ١٥١.

(٣) الأبيات من الكامل. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٨٢.

(٤) البيت من الطويل. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٦٨.

الثَّالث قوله في وصْف صلْب (بابك) في ثنايا مدح المُعتصِم . رحمهما الله .:

لَـمْ يَبْـكِ إِبْلِـيسُ إِلَّا حِـينَ أَبْصَـرَهُ ∴ فِـي زِيّـهِ، وَهُـوَ فَـوقَ الفِيـلِ مَصْـفُودُ

كَنَاقَـةِ النَّحْـرِ تُزْهِـي تَحْـتَ زِينَتِهَـا ∴ وَحَـــدٌّ شَـــفْرَتِها للنَّحْـــرِ مَحْـــدُودُ

مَا كَانَ أَحْسَنَ قَولَ النَّاسِ يَومَئذٍ ∴ أَيَـــومُ بَابَـــكَ هَـــذا أَمْ هُـــوَ العِيـــدُ ؟

صَـــيَّرتَ جُثَّتَـــهُ جِيـــدًا لِبَاسِـــقةٍ ∴ جَـرْدَاءَ، وَالـرَّأْسُ مِنـهُ مَـا لَـهُ جِيـدُ

فَـآضَ تَلْعَبُ هُـوجُ العَاصِـفَاتِ بِـهِ ∴ عَلَـى الطَّرِيـقِ صَـلِيبًا، طَرْفُـهُ عُـودُ

كَأَنَّـهُ شِـلْوُ كَـبْشٍ وَالهَـوَاءُ لَـهُ ∴ تَنُّـورُ شَـاوِيةٍ وَالجِـذْعُ سَـفُّودُ (١)

****

فأمَّا قوله:

إِنْ كُنْـتَ تَنْشَـطُ للصَّـبوُح فَإِنَّـهُ ∴ يَـــوْمٌ أَغَـــرُّ مُحَجَّـــلُ الأَطْـــرافِ

وَأَرَى الغَمَامَـــةَ كَالْعُقَـــابِ مُحَلِّقًـــا ∴ مُسْـــوَدَّة الأَوْســـاطِ والأَكْنَـــافِ

طَـــوْرًا تَبُلُّـــكَ بِـــالرَّذاذ وَتَـــارَة ∴ تَهْمِـــي عَلَيْـــكَ بِـــدَلْوِها الْغَـــرَّافِ (٢)

---

(١) الأبيات من البسيط. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٣٦ ، ١٣٧.

(٢) الصَّبوح: الخمر . . ويقال صَبَحْتُ فلانا أي: ناولته صَبُوحا من لبن أَو خمر ينظر: لسان العرب . مادة (صبح).

محجل الأطراف: التحجيل بياض يكون في قوائم الفرس كلها. ينظر: لسان العرب ـ مادة (حجل).

العقاب: طائر من العِتاقِ مؤنثةٌ وقيل العُقابُ يَقَع على الذكر والأُنثى إلا أَن يقولوا هذا عُقابٌ ذكَر والجمع أَعْقُبٌ وأَعْقِبةٌ. ينظر: لسان العرب . مادة (عقب).

الأكناف: الكَنَفُ والكَنَفةُ ناحية الشيء وناحِيتا كلِّ شيء كنَفاه والجمع أَكناف. ينظر: لسان العرب . مادة (كنف). **الرَّذاذ:** المطر ، وقيل :الساكن الدائم الصغار القطر كأَنه غبار ، وقيل هو بَعْدَ الطَّلِّ ، قال الأَصمعي: أَخف المطر وأَضعفه الطل ، ثم الرَّذاذُ ، والرَّذاذُ فوق القِطْقِطِ. ينظر: لسان العرب . مادة (رذذ) .

←←←

ففيه يجمع الشَّاعر بين هيئتين مُتباعدتين: (هيئة الغمام، وهيئة طير العقاب) إذ يُشبِّه هيئة الغمامة في يوم الإقبال على احتساء شَرَاب الخَمر، بِهيئة طير العُقاب المُحلِّق بعيدًا في أرجاء السَّماء في انتشار اللون الأسْود في وسطها وأكنافها، والجامع: هيئة السَّواد الذي يرى مِن بعيد في كلّ.

فقد استطاع الشَّاعر بحسِّه العالي أن يجد شبَها صحيحا لهيئة هذا الغمام الأسْود، وهي هيئة يصْعب . إلا على حاذق . إيجاد نظير لها في لونها وارتفاعها ورؤية حركتها بطيئة لارتفاعها الشَّاهق، حتَّى لكأنَّها في نظر النَّاظر إليها ثابتة في مكانها.

هذا، وتسمية الخَمر صَبوحا في قوله: (إنْ كُنْتُ تَنْشَطُ للصَّبُوح) مِن باب تسمية الشَّيء بما يشرب في زمان الصُّبح، وقوله: (فَإنَّه يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ الأَطْرافِ) يتزاحم الوصْفان على إبراز انتشار الضِّياء على أرجاء المَكان، ففي قوله: (مُحَجَّلُ الأَطْرافِ) كناية عن ذلك.

هذا، وذكْر(الأَوْساطِ والأَكْنافِ) في وصْف العقاب يُنْبئ عن إحَاطة السَّواد بالعقاب مِن كلّ ناحية.

هذا، والمُتأمِّل يبين له أنَّ الشَّاعر يبرز أنَّ شارب الصَّبوح يرى مشاهد الكون بعين مختلفة، فهو يوم أغرّ محجل الأطراف و. . . ، كما يقول الشَّاعر.

وأمَّا قوله:

طَوْرا تَبُلُّكَ بالرَّذاذ وَتارَة ∴ تَهْمِي عَلَيْكَ بِدَلْوِها الْغَرَّافِ

ففيه يُؤكِّد علَى أنَّ الكون في يوم الصَّبوح له طبيعة خاصَّة، ومِن ثَمَّ تراه في هذا البيت يُبرز لك عن حالين مُختلفين لهذه الغَمامة، فطورا تُسْقط عليك مطرا خفيفا جدًّا،

←←←

تهمي عليك بدلوها الغراف: هَمَتْ عينُه هَمْياً وهُمِيًّا وهَمَياناً صَبَّتْ دمعها عن اللحياني ، وقيل: سالَ دَمْعُها وكذلك كلُّ سائل من مطر وغيره. ينظر: لسان العرب . مادة (همى).

دلوها الغراف: يقال: نهر غَرَّافٌ كثير الماء ، وغيث غرَّاف غزير ينظر: لسان العرب . مادة (غرف).

وطورا تسِيل عليك بالمطر الغزير، وهذا التَّنويع في العَطاء . كما يبدو لي . مظْهر مِن مظاهر الإعجاب بها.

****

وأمَّا قوله في سياق الهِجاء، وهو بيت وحِيد:

يَثُـوبُ بِبَـادِي النُّصْـحِ غِشًّـا يُسِـرُّهُ ∴ كَمَا خِيضَ بِالسُّمِ الرَّحِيقُ المُشَعْشَعُ (١)

فيُشبِّه فيه هيئة إضمار الكيد والمكر فيما ظاهره النُّصْح، بهيئة دسّ السُّم أو مزجه في الشَّراب الصَّافي خمْرًا كان أو غيره، والجامع: خَلْط الشَّيء الحَسَن بالقبيح الخفِيّ في كلّ، والغرض مِن الصُّورة التَّشبيهيَّة: تقرير حال المشبه لإرادة تقبيحه .

فتأمَّل كيف جمَع (إبراهيم بن المَهْديّ) بين مُتباينين في حَذو واحِد، وقرَّب أمامك صُورة المعاني غير المَحْسوسة؛ إذ ألبَسها صُورة المَحْسوسات المُبصَرة، فأراك . في صُورة كاشِفة . بالغ قُبْح دسّ الكَيد والمَكر في ثوب النُّصْح؛ إذ جعله كمَن يدسّ السُمّ لغرض القتل، ففي هذا التصوير مِن تجلية المَعنى ما فيه.

هذا، وفي بناء الفِعل (خِيض) لِما لَم يُسمَّ فاعله تناسب بيِّن مع حال هذا الفعل الذي لا يحدث إلا في الخَفاء، ومِن ثَمَّ فإنَّ طيّ الحديث عن ذكْر فاعله تناسُب بَيِّن مع شدَّة حرْص صاحبه على التَّخفِّي.

---

(١) **يثوب:** يخلط. ينظر: هامش رقم (١) في: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٦٨.

خيض: سيف خَيِّضٌ إذا كان مخلوطاً من حديد أَنِيثٍ وحديد ذَكِير. ينظر: لسان العرب . مادة (خيض).

الرحيق المشعشع: الرَّحِيقُ: من أَسماء الخمر معروف قال ابن سيده: وهو من أَعْتَقِها وأَفضَلها وقيل الرَّحِيقُ صَفْوة الخمر ، وقال الزجاج في قوله تعالى: من رَحِيق مختوم. قال: الرَّحِيق: الشراب الذي لا غِشّ فيه. ينظر: لسان العرب . مادة (حيق).

وشَعْشَعَ الشَّرابَ شَعْشَعَةً مزَجَه بالماء ، وقيل المُشَعْشَعة الخَمْرُ التي أُرِقَّ مَزْجُها . . قال ابن المبارك شَعْشَعَها خلَط بعضَها ببعض كما يُشَعْشَعُ الشرابُ بالماء إذا مُزِجَ به. ينظر: لسان العرب . مادة (شعع).

وفي تقديم مُتعلِّق الفعل (خِيضَ) وهو الجار والمجرور على المُسند إليه (نائب الفاعل) في قوله: (كَمَا خِيضَ بِالسُّمِ الرَّحِيقُ المُشَعْشَعُ) تبيان أنَّ السُّمّ قد اختلط بالرَّحيق كلّه، فلم يترك شيئًا منه إلا وقد امتزج به، وفي هذا مِن تِبيان قبيح فِعال هذا الخائض ما فيه، وأنَّ السُّم وحده كان محطّ عنايته، وفيه كذلك مِن الإشارة إلى مُسَارعة هذا الخائض خبيث النَّفس إلى إحضار السُّمّ قبل الرَّحيق المُشعشَع ما لا يَخفى.

فالشَّاهد هنا يُمثل تصوير المعنويات، والجمع بين المتباينات، وهو الأظهر لي، في آن واحد.

****

وفي قول الخليفة إبراهيم بن المَهْديّ في وصْف ما أصَاب (بابك) [1] في ثنايا مدْحه للخليفة (المُعتصِم) قاتل بابك:

لَـمْ يَبْـكِ إبْلِـيسُ إلَّا حِـينَ أَبْصَـرَهُ ∴ فِـي زِيّـهِ، وَهُـوَ فَـوقَ الفِيـلِ مَصْـفُودُ

كَنَاقَـةِ النَّحْـرِ تُزْهِـي تَحْـتَ زِينَتِهَـا ∴ وَحَـدٌّ شَـفْرَتِها للنَّحْـرِ مَحْـدُودُ

مَـا كَـانَ أَحْسَـنَ قَـولَ النَّـاسِ يَومَئِـذٍ ∴ أَيَـومُ بَابَـكَ هَـذا أَمْ هُـوَ العِيـدُ ؟

صَـيَّرتَ جُثَّتَـهُ جِيـدًا لِبَاسِـقَةٍ ∴ جَـرْدَاءَ، وَالـرَّأسُ مِنـهُ مَـا لَـهُ جِيـدُ

فَـآضَ تَلْعَـبُ هُـوجُ العَاصِـفَاتِ بِـهِ ∴ عَلَـى الطَّرِيـقِ صَـلِيبًا، طَرْفُـهُ عُـودُ

---

(١) **بابك:** هو بابك الخُرَّمَي . . وإنَّما قيل له: بابك الخُرَّمَي ؛ لأنَّه دعا الناس إلى مقالة الخُرَّمَية ، وهو لفظ أعجمي يُنبئ عن الشيء المُستطاب المستلذ ؛ لأنَّهم يعتقدون إباحة الأشياء ، وهو راجع إلى عدم التكليف والتسلط على اتباع الشهوات . . . وكان ظهور بابك سنة إحدى ومائتين بناحية أذربيجان ، وتبعه خلق عظيم على رأيه ، فأقام عشرين سنة يهزم جيوش المأمون والمعتصم ، فيقال: إنه قتل مائة ألف وخمسين ألفا وخمس مائة إنسان ، ولما قتله المعتصم وفُتِحت مدينته وُجِد فيها سبعة آلاف وست مائة امرأة مسلمة. ينظر: الوافي بالوفَيَات لصلاح الدين الصفدي . تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ١٠ / ٣٨ . ٤٠. ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٢٠ هـ . ٢٠٠٠ م.

كَأَنَّـــهُ شِـــلْوُ كَـــبْشٍ وَالهَـــوَاءُ لَـــهُ ∴ تَتُّـــورُ شَـــاوِيةٍ وَالجِـــذْعُ سَـــفُّودُ (١)

يصف مشهد صلب (بابك) منذ اللحظات الأولى لصلبه، وفيها يبرز كيف كانت تلك المشاهد مريرة وقاسية، فقوله:

لَـمْ يَبْـكِ إِبْلِـيسُ إِلَّا حِـينَ أَبْصَـرَهُ ∴ فِـي زِيّـهِ، وَهُـوَ فَـوقَ الفِيـلِ مَصْـفُودُ

كَنَاقَـةِ النَّحْـرِ تُزْهِـي تَحْـتَ زِينَتِهَـا ∴ وَحَـــدٌّ شَـــفْرَتِها للنَّحْـــرِ مَحْـــدُودُ

---

(١) مصفود: الصَّفَد القيد وجمعها أَصفاد ، الجوهري الصِّفادُ: ما يُوثَقُ به الأَسير من قِدٍّ وقَيْدٍ وغُلٍّ . ينظر: اللسان . مادة (صفد).

تزهو تحت زينتها: الزَّهْوُ الكِبْرُ والتِّيهُ والفَخْرُ والعَظَمَةُ. ينظر: لسان العرب . مادة (زها).

حد شفرتها: الشَّفْرَةُ بالفتح السِّكِّينُ العريضة العظيمة ، وجمعها شَفْرٌ وشِفارٌ . . وشَفَراتُ السيوف: حروفُ حَدّها. ينظر: لسان العرب . مادة (شفر).

صيرت جثته جيدا لباسقة جرداء: الجِيدُ: العنق ، وقيل مُقَلَّده ، وقيل: مقدَّمه ، وقد غلب على عنق المرأة. ينظر: لسان العرب . مادة (جيد).

بسَقَ الشيء يَبْسُق بُسوقاً تمّ طوله ، وفي التنزيل: (والنخلَ باسِقاتٍ لها طَلْع نَضِيد) الفرّاء باسقاتٍ طولاً ، يقال بَسَق طولاً ، فهنّ طِوال النخلِ ، وبَسق النخلُ بُسوقاً ، أي: طال. ينظر: لسان العرب . مادة (بسق).

جرداء: الجُرْدَةُ بالضم أَرض مسْتوية متجرِّدة ومكانٌ جَرْدٌ وأَجْرَدُ وجَرِدٌ لا نبات به . . وأَرض جَرْداءُ: فضاء واسعة مع قلة نبت ، ورجل أَجْرَدُ لا شعر على جسده. ينظر: لسان العرب . مادة (جرد).

فآض: آضَ يَئِيضُ أَيضا سارَ وعادَ ، وآضَ إِلى أَهله: رجع إِليهم. ينظر: لسان العرب . مادة (أيض).

شلو كبش: الشِّلْوُ والشَّلا: الجِلدُ والجسَد من كل شيء ، وكلُّ مسلوخة أُكِلَ منها شيءٌ فبَقِيَّتُها شِلْوٌ . . . وأَشْلاءُ الإِنسان أَعضاؤُه بعدَ البِلى والتفَرُّق. ينظر: لسان العرب . مادة (شلا).

تنور شاوية: التنور: إِناء الشواء. ينظر: هامش رقم (١١) في: شعر إبراهيم بن المهدي وأخباره ص ١٣٧.

سفود: السَّفُّودُ والسُّفُود بالتشديد حديدة ذات شُعَب مُعَقَّفَة معروف يُشْوي به اللحم وجمعه سفافيد. ينظر: لسان العرب . مادة (سفد).

جاء في ثوب المُبالغة في تصوير شدَّة الخطْب وعظيم الكرب الذي لحق ببابك؛ إذ تراه يُصوِّر لك في صُورة أُسلُوب القَصْر أنَّ إبليس ـ لَعنه الله ـ لم يَبكِ تأثُّرا وشفَقة وحُزنا ـ وهذا لبالغ الكرب وعظم الخَطْب ـ إلا حين أبصر بابك على الفِيل مُقيدا ذليلا في ثياب عزَّته، وذلّ العزيز مُرَّ حنْظل.

وفي البيتين يُشبِّه إبراهيم بن المهدي الهيئة الحاصلة لبابك وهو محمول فوق الفيل إلى الصُّلب في ثياب عزَّته التي كان عليها، بِهيئة تلك النَّاقة التي تختال تحت زينتها مع أنَّها في طريقها إلى النَّحر، وهي لا تدرك ذلك ولا تتوقع، والجامع بين الطَّرفين: هيئة الشَّيء يظهر في مَظْهر حَسَن يعقبه أو ينتظره مَصِير مُؤلم، والغرَض مِن التَّشبيه ـ كما ترى ـ بيان الحال.

ففي هذه الصُّورة ـ كما ترى ـ جمَع الشَّاعر بين مُتباعِدين، فأراك في هيئة تلك النَّاقة شبَها لبابك وهو في طريقه إلى الصَّلب، وقد أحسَن الشَّاعر الجَمْع بينهما؛ لأنَّ صُورة المُشبَّه به بلا شكّ تتكرَّر على البَصر أكثر مِن صُورة المُشبَّه.

وحِين تتأمَّل معِي بِنية المشبَّه به:

كَنَاقَـةِ النَّحْـرِ تُزْهِـي تَحْـتَ زِينَتِهَـا ∴ وَحَـــدُّ شَـــفْرَتِها للنَّحْـــرِ مَحْـــدُودُ

تجد حُسنا في بِنية التَّشبيه كذلك، وهذا شَيء يُحْسب للشَّاعر، فقد أضاف النَّاقة إلى النَّحر في قوله: (كَنَاقَةِ النَّحْرِ)، وهذا مِن إضافة الشَّيء إلى سَببه، فالنَّحر سبَب في قتلها، وفي هذا الإسْناد حُسْن ما بعده حُسن؛ إذ إنَّ الإضافة هنا تُنْبئ عن مدى التصاق وصف النحر بها، وهذا يعني أنَّها في الآتي القريب منحورةٌ مَنْحُورة، فهو حاصل لا محالة.

وقوله: (تُزْهِي تَحْتَ زِينَتِهَا) يحْكي تِيه تلك النَّاقة وطربها وسُرورها، وفي التِّيه والطَّرب تجدُّد لا ينقطع، وهذا ما أبرزه التعبير بالفعل المُضارع، وفي التعبير يَبرز أيضًا كمال غفْلتها، وعدم إدراكها لهذا المَصير الكريه الذي ينْتظرها، وقوله: (تحت

زينتها) يَشي عن بالغ ما أُعدَّ لها، والذي مِن شأنه ألا تتوقَّع تلك النَّاقة ذاك المصير، ومِن ثمَّ يكون ألمها ساعة النَّحر أشدّ، ووقعه عليها أنْكى.

أمَّا قوله: (وَحَدُّ شَفْرَتِها للنَّحْرِ مَحْدُودُ) فهو كناية عن تمام التَّهيُّؤ والاستعداد، وفيه أيضًا مِن ترقُّب المكْروه وانتظاره ما فيه، وفي إضافة السَّكين إليها: (وَحَدُّ شَفْرَتِها) تقرير لمعنى التَّهيؤ والترقُّب لها خاصَّة، وهذا مِن شأنه تبيان شدَّة الظَّفر بها وبالغ التمكن منها ما فيه.

وأمَّا قوله في معرض مدح المعتصم:

صَـــيَّرتَ جُثَّتَـــهُ جِيـــدًا لِبَاسِـــقةٍ ∴ جَـرْدَاءَ، وَالـرَّأسُ مِنـــهُ مَـا لَـــهُ جِيـدُ

فقد صوَّر فيه حال بابك بعد الصَّلب.

فالبيت يُصوِّر كثرة سَيلان الدّم بعد فصل رأسه عن جسده؛ إذ يعني أنَّ الدم قد سال منه بغزارة، فكان سببًا في إنبات تلك الأرض التي كانت جرداء، فصارت باسقة الزَّرع والشَّجر.

وقوله: (وَالرَّأسُ مِنهُ مَا لَهُ جِيدُ) تهجين لبابك، وتبيان قُبح منظره، فرأسه متَّصلة بجسده؛ لأنَّ المصلوب ليس له عنق يزينه، وطول العُنُق صفة جَمال في الإنسان، أو أنَّ التعبير يُنبئ عن قطع رأسه عن جَسده، والعنق هو موضع القطع.

ويأتي قوله:

فَـآضَ تَلْعَـبُ هُـوجُ العَاصِـفَاتِ بِـهِ ∴ عَلَـى الطَّرِيـقِ صَـلِيبًا، طَرْفُـهُ عُـودُ

كَأَنَّـــهُ شِـــلْوُ كَـــبْشٍ وَالهَـــوَاءُ لَـــهُ ∴ تَنُّـــورُ شَـــاوِيةٍ، وَالجِـــذْعُ سَـــفُّودُ

لتشبيه الهيئة الحاصِلة للحالة المُزرية التي صَار عليها (بابك) بعد الصَّلب، والرِّياح على الطَّريق تحرّكه يَمْنة ويسرة، بهيئة جَسَد الكبْش وهو يُشوى علَى النَّار، لكنَّه شواء مِن نوع خاص يتخيله الشَّاعر، فإذا كان الشّواء يحتاج إلى تنُّور وسفود، فهذا الكبش يتخيَّل الشَّاعر أنَّ الهواء تنوره، وأنَّ الجِذع . وهو موضع يكون الصَّلب عليه غالبًا . حديدة الشّواء، وفي هذا التَّخييل مِن رفع قيمة التشبيه ما لا يخْفى.

المبحث الخامس :

التَّقرير والتَّثبيت، ببناء صُورة المُشبَّه به بعد لَفظ (كذاك أو كذلك) .

مِن السِّمات البلاغيَّة التي بَرزت في شَواهد التَّشبيه المُركَّب في شِعر الخليفة المُغَنِّي (إبراهيم بن المَهديَ) في هذا المبحث: التَّقرير والتَّثبيت، وذلك ببِناء صُورة المُشبَّه به بعد لفْظ: (كذاك أو كذلك)، فتراه في شواهد هذا المبْحث يعْرض لك المَعاني في ثوب طريف مِن البيان؛ إذ يبدو حاله فيها حال مَن يقُصّ عليك قصَّة قصيرة أو حكاية سَريعة، في نهايتها

يأتي المُشبَّه به فيكتمل بِناء ما بدأه على أحسَن ما يكون البِناء، ويظهر المُشبَّه به فجأة وكأنَّه عرَض له مِن دون قَصْد أو تعمُّد .

فطريقة إبانة الشَّاعر عن المعاني هنا طريقة فيها سِحْر وسلاسة وإقناع، ولهذا تراها تنفُذ إلى المُتلقِّي بيُسر وسُهولة، وهذا مِن أمارات البيَان الجيِّد.

فلفظة: " (كذلك) كثيرا ما يقصد بها تثبيت ما بعدها، وذلك لأنَّ وجه الشَّبه يكون كثيرا في النَّوعية والجِنسية، كقولك: هذا الثوب كهذا الثوب، في كونه خزًا أو بزًا، وهذا التَّشبيه يستلزم وجود مثله وثبوته في ضمن النَّوع، فأريد به على طريق الكِناية مُجرد الثُّبوت لما بعده .

ولمَّا كانت الجملة تدلّ على الثُّبوت كان معناها موجودا بدونها، وهي مؤكّدة له، فكانت كالكلمة الزائدة، وهذا معنى قولهم: إنَّ الكاف مقحمة لا أنَّها زائدة، كما يوهمه كلامهم، وأمَّا استفادة كون ما بعدها عجيبا فليس إلا لأنَّ ما ليس كذلك لا يحتاج

لبيان، فلمَّا اهتم بإثباته في الكلام البليغ علم أنَّه أمر غريب، أو لحمل البعد المفهوم مِن ذلك على البُعد الرتبي " [1]

هذا، وقد ترجم هذا السَّمت البلاغيّ في تشبيهات إبراهيم بن المهدي المركبة ثلاثة مواضع من الدِّيوان.

أمَّا الموضع الأوَّل فقوله :

إِذَا مَـــا الزَّمَـــانُ بِأَخْلَافِـــهِ ∴ طَـــوَاكَ كَطَـــيّ الثِّيَـــابِ الجُـــدُدْ

يُفِـــيضُ عَليـــكَ قِـــدَاحَ الـــرَّدَى ∴ لِتَأْخُـــذَ مِنْهَـــا بِقِـــدْحِ نَكَـــدْ

فَمَـــا أَنْـــتَ إِلَّا أَسِـــيرٌ لَـــهُ ∴ وَإِنْ أَمْكَـــنَ الحَيـــدُ عَنْـــهُ فَحِـــدْ

هَـبِ الـدَّهْرَ لَـمْ يَتَحَامَـلْ عَلَـى ∴ سِـــوَاكَ فَهَـــلْ لَـــكَ مِنْـــهُ الْقَـــوَدْ ؟

وَإِنْ يَسْـــقِكَ الْيَـــوْمَ مِـــنْ آجِـــنٍ ∴ صَـــــرًى لا يُـــــذاقُ وَلا يُـــــزْدَرَدْ

فَقَـدْ كَـانَ يُسْـقِيك مِـنْ صَـفْوِهِ ∴ نِطَـــافَ الْغَـــوادِي بِـــذَوْبِ الْشَّـــهَدْ

كَـــذَاكَ تَجِـــيءُ صُـــرُوفُ الزَّمَـــا ∴ نِ عَلَـــى مَـــا أَرَادْتَ وَمَـــا لَـــمْ تُـــرِدْ [2]

وأمَّا الموضع الثَّاني فقوله في مقطوعة عدتها هذه الأبيات الثلاثة:

وَقَـــدْ يَصْـــدُقُ السَّـــيفُ يَـــومَ الـــوَغَى ∴ أَخَـــــاهُ وَإِنْ كَـــــانَ رَثَّ القِـــــرَاب

كَـــأَنَّ سَـــــنا بَـــــارقٍ مُسْـــــتَطْيِر ∴ بَـــــيْنَ ذُؤَابَتِـــــهِ وَالـــــذُّباب

كَـــذَاكَ الرِّجَـــالُ يَكُـــونُ الْفَتَـــى ∴ صَلِيبًا وَذُو الشَّيْبِ صُلْبُ النِّصابْ [3]

والموضع الثالث قوله في مستهل مقطوعته التي جاءت في تسعة أبيات:

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ٢ / ٣ . ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) الأبيات مِن بحْر المُتقارب. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٢٩ ، ١٣٠.

(٣) الأبيات مِن المُتقارب. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٩٩.

قَلَيْـتُ الصَّـبَا وَهَجَـرْتُ الْغَـوانيِ ∴ وَســلَّمْتُ مُعْتَرِفــاً لِلزَّمــانِ
وَأَعْنَقْـتُ مُنْطَلِقــاً فِــي الْقِيــا ∴ دِ بَعْـدَ الجِمــاحِ وَجَـذْبِ الْعَنــانِ
كَــذَاكَ الْفَتَــى وصَــرُوفُ الزَّمــا ∴ نِ يُحْـدِثْنَ شَـأْنا لَـهُ بَعْـدَ شَـانِ
رَأَيــتُ الحَيَــاةَ وَلَــذَّاتِهَا ∴ مُعَلَّقَــةً بِلَيــالٍ فَــوَانِ[1]

وفي خاتمة القصيدة (عند البيت الثَّامن ومَا يليه) يقول على هذا النَّمط مِن التَّشبيه:

أُحــبُّ الْوَفــاَء إذا مــا وَعَــدْ ∴ تُ وَأَلاَّ يُعــابَ بَمطْــلٍ ضَــمانِي
كَــذلِكَ عَــوَّدَنِي وَالَــدِايَ ∴ فَعَـوَّدْتُ نَفْسِـي الـذَّيِ عَـوَّدانِي [2]

****

فأمَّا قوله:

إِذَا مَــا الزَّمَــانُ بِأَخْلاَفِــهِ ∴ طَــوَاكَ كَطَــيّ الثِّيَــابِ الجُــدُدْ
يُفِــيضُ عَليــكَ قِــدَاحَ الــرَّدَى ∴ لِتَأْخُــذَ مِنْهَــا بِقِــدْحِ نَكَــدْ
فَمَــا أَنْــتَ إِلَّا أَسِــيرٌ لَــهُ ∴ وَإِنْ أَمْكَــنَ الحَيــدُ عَنْــهُ فَحِــدْ
هَــبِ الــدَّهْرَ لَــمْ يَتَحَامَــلْ عَلَــى ∴ سِــوَاكَ فَهَــلْ لَــكَ مِنْــهُ الْقَــوَدْ
وَإِنْ يَسْــقِكَ الْيَــوْمَ مِــنْ آجِــنٍ ∴ صَــرًى لا يُــذاقُ وَلا يُــزْدَرَدْ
فَقَــدْ كــانَ يُسْــقِيك مِــنْ صَــفْوِهِ ∴ نِطــافَ الْغَــوادِي بِــذَوْبِ الْشَّــهَدْ
كَــذَاكَ تَجِــيءُ صُــرُوفُ الزَّمــا ∴ نِ عَلَــى مَــا أَرَادْتَ وَمَــا لَــمْ تُــرِدْ [3]

---

(١) الأبيات مِن المُتقارب. ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٢٦.

(٢) ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٢٧.

(٣) **أخلاف الزمان:** اختلاف أيامه وتعاقبها هذا بعد ذاك. ينظر: هامش رقم (٧) في: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٢٩. الطَّيُّ: نَقِيضُ النَّشْرِ. ينظر: اللسان . مادة (طوي) .
هب: تقول هَبْ زَيْدا مُنْطَلِقا: بمعنى احْسُبْ يَتَعَدَّى إلى مفعولين ولا يستعمل منه ماضٍ ولا مُسْتَقْبلٌ في هذا المعنى ، ابن سيده ، وهَبْني فَعَلْتُ ذلك أي: احْسُبْني واعْدُدْني ، ولا يقال هَبْ ←←←

فيُشبِّه ابتداء هيئة تمكُّن الزَّمان مِن الإنْسان وغلبته وجعله تحت قبْضته، بِهيئة طَيّ الثِّياب الجديدة، والوجْه الجَامع بين الهيئتين: شِدَّة الأخْذ، وكمال التَّمكُّن .

والغرض مِن التَّشبيه: تِبيان غلَبة الدَّهر وشدَّته على الإنْسان، وفيه مِن تصوير فرْط عجْز الإنسان أمامه ما فيه، وقد أعان على ذلك إسْناد الطَّي إلى الزَّمان إسنادا عقليا، كما يدلّ على ذلك قوله في البيت التالي:

يُفِـــيضُ عَليـــكَ قِـــدَاحَ الـــرَّدَى ∴ لِتَأْخُـــذَ مِنْهَـــا بِقِـــدْحِ نَكَـــدْ

→→→

أَني فَعَلْتُ ، ولا يقال في الواجب: وَهَبْتُك فَعَلْتَ ذلك ؛ لأَنَّها كلمة وُضِعَتْ للأَمر. ينظر: لسان العرب . مادة (وهب).

القود: القِصاصُ ، وأَقَدْتُ القاتِلَ بالقتيل أَي قَتَلْتُه به. ينظر: لسان العرب . مادة (قود).

آجن: الآجِنُ الماءُ المتغيّرُ الطعمِ واللونِ. ينظر: لسان العرب . مادة (أجن).

صرى: الصَّرَى والصِّرَى: الماءُ الذي طالَ اسْتِقاعه ، وقال أَبو عمرو إذا طال مُكْثُه وتغَيَّر ، ومنه قول ذي الرمة:

صَرىً آجِنٌ يَزْوي له المَرْءُ وجْهَه ذا ذاقَه ظَمْآنُ في شَهْرِ ناجِرِ

ينظر: اللسان . مادة (صري).

نطاف الغوادي: النطاف: الماء الصافي قلَّ أَو كثر والجمع نُطَف ونِطاف وقد فرق الجوهري بين هذين اللفظين في الجمع فقال النُّطفة الماء الصافي ، والجمع النِّطاف والنُّطفة ماء الرجل والجمع نُطَف. ينظر: اللسان . مادة (نطف) .

الغوادي: الغادِيَة السَّحابَة التي تَنْشَأُ غُدْوة . . وقيل الغادِية السَّحابة تنشأُ فتُمْطر غُدْوةً وجمعُها غَوادٍ وقيل الغادِيةُ سحابةٌ تَنْشَأُ صباحا. ينظر: اللسان . مادة (غدا).

بذوب الشهد: الشَّهْدُ والشُّهْد العَسَل ما دام لم يُعْصَرْ من شمَعِه ، واحدته شَهْدَة وشُهْدَة ، ويُكَسَّر على الشِّهادِ. ينظر: اللسان . مادة (شهد).

صروف الزمان: صَرَّفَ الشيءَ أَعْمله في غير وجه ، كأَنه يَصرِفُه عن وجه إلى وجه ، وتَصَرَّفَ هو وتَصارِيفُ الأُمورِ: تَخالِيفُها . . وصَرْفُ الدَّهْرِ: حِدْثانُه ونَوائبُه ، والصرْفُ: حِدْثان الدهر اسم له ؛ لأَنه يَصْرِفُ الأَشياء عن وجُوهها. ينظر: اللسان . مادة (صرف).

هذا، ويتبدَّى لي في هذا التَّشبيه شَيء مِن الجدَّة، ويمكن أن يكون صورة للجمْع بين أمرين متباعدين، وقد أحسَن فيه الشاعر كذلك التَّشبيه بالصُّورة الحسيَّة المُبْصرة:(صُورة طيّ الثِّياب الجديدة).

ويُمكن أيضًا أن يكون المُراد مِن الصُّورة التَّشبيهيَّة تصوير سرعة كرور أيام الزَّمان على الإنْسان، وتعاقُبها عليه يومًا بعد يوم، بِهيئة طَيّ الثِّياب الجديدة، والوجه الجامع: بالغ السُّرعة في كلّ.

ثمَّ يُثنِّي في قوله:

فَمَا أَنْتَ إِلَّا أَسِيرٌ لَهُ ∴ وَإِنْ أَمْكَنَ الحَيدُ عَنْهُ فَحِدْ

بتشبيه المُخاطَب . والخِطاب هنا عام لكلّ أحد . بالأسير، والوجه الجامِع بين طرفيْ التَّشبيه وهما مُفردان: تصوير العجز وعدم مقدرة الفكاك، وتبيان مدَى سَطْوة هذا الزَّمان على الإنْسان.

أمَّا قوله وهو موضع الشَّاهد الذي تبدو فيه سِمة التَّقرير والتَّثبيت:

هَبِ الدَّهْرَ لَمْ يَتَحامَلْ عَلَى ∴ سِواكَ فَهَلْ لَكَ مِنْهُ الْقَوَدْ

وَإِنْ يَسْقِكَ الْيَوْمَ مِنْ آجِنٍ ∴ صَرًى لا يُذاقُ وَلا يُزْدَرَدْ

فَقَدْ كَانَ يُسْقِيك مِنْ صَفْوِهِ ∴ نِطافَ الْغَوادِي بِذَوْبِ الْشَّهَدْ

كَذَاكَ تَجِيءُ صُرُوفُ الزَّمَا ∴ نِ عَلَى مَا أَرَادْتَ وَمَا لَمْ تُرِدْ

ففيه يُشبِّه الهيئة الحاصِلة للحال المُتغيِّرة للإنسان بسبب الدَّهر؛ إذ إنَّ المرء قد تكون سِقايته في حاضر يومه مِن الماء الخَبيث الذي تغيَّر طعمه ولونه، بِسبب طُول استنقاعه، مع أنَّه في الماضي قد كان يشرب صَافي الماء بذَوب العَسَل .

أمَّا المُشبَّه به: فالهيئة الحاصِلة لبالغ شدة أحداث الزَّمان، وتِبيان بالغ تصرُّفها في الإنْسان وفرْط عجزه وضَعفه؛ إذ يكون مِنها ما يُوافق إرادتها وما لا يُوافق.

فالأبيات تُصوِّر شدَّة الزَّمان وقسوته أمام ضعف الإنسان وعجْزه، ومِن ثمَّ يجب أن يكون التَّحلِّي بالصَّبر والرِّضا.

تأمَّل مَعي كيف أبان الشَّاعر عن هذا المَعْنى، وتأمَّل طريقته تلك، فقد عرض للمعنى وكأنَّه يحْكي لك حكاية، حتَّى إذا بلغ نهايتها بنى صُورة المُشبَّه به وهي الأهمّ ومحطّ عنايته، إذ فيها تقرير للمعنى ذاته وتثبيته مِن جهتين: جهة التَّصوير المَحْسوس المُبصَر، وجهة إفراغ المعنى في العقل مُجردًا، وفي هذا ما فيه.

فتأمَّل هنا كيف انتقل بك الشَّاعر مِن الصُّورة الحِسِّية المُبْصرة: (صُورة شارب الماء الخبيث النَّتن، بعد الماء الزُّلال الممزوج بالعَسل) وما يلزم عن ذلك مِن مَرارة وأسىً في النَّفس إلى تقرير تلك الحقيقة المُجردة: (تصرف صروف الزمان بالإنسان على ما يوافق إرادتها وما لا يوافق)، والغرض كما يبدو للناظر إفادة معنى الإحاطة والاشتمال، وهذا مِن شأنه المُبالغة في تصْوير غلَبة الدَّهر وشدَّته على الإنْسان، وفيه كذلك مِن تصوير فرْط عجْز الإنْسان أمام هذا الدَّهر كما أسلفنا.

****

وفي قوله:

وَقَـدْ يَصْـدُقُ السَّـيفُ يَـومَ الـوَغَى ∴ أَخَـــاهُ وَإِنْ كَـــانَ رَثَّ القِـــرَاب

كَـــأَنَّ سَـــنا بَـــارقٍ مُسْـــتَطِيرٍ ∴ بَـــيْنَ ذُؤَابَتِـــهِ وَالـــذُّباب

كَـــذَاكَ الرَّجَـــالُ يَكُـــونُ الْفَتَـــى ∴ صَلِيبًا وَذُو الشَّيْبِ صُلْبُ النِّصابْ (١)

---

(١) **القرابُ:** غِمْدُ السَّيف والسكين ونحوهما ، وجمعُه قُرُبٌ. ينظر: لسان العرب . مادة (قرب).

سنا بارق مستطير: سنا: سَنَت النارُ تَسْنُو سَناءً: عَلا ضَوْءُها ، والسَّنا مقصورٌ ضوءُ النارِ والبرْقِ. ينظر: لسان العرب . مادة (سنا).

التَّطايُر والاسْتِطارةُ: التفرُّق ، واسْتَطارَ الغُبارُ إذا انْتَشر في الهواء ، وغُبار طيّار ومُسْتَطِير مُنْتَشر ، وصُبْحٌ مُسْتَطِير: ساطِعٌ منتشر ، وكذلك البَرْق والشَّيْب والشرُّ. ينظر: لسان العرب . مادة (طير).

بين ذؤابته والذباب: ذُؤَابَة السَّيْفِ عِلاقَةُ قائِمِه. ينظر: لسان العرب . مادة (ذأب).

ذبابُ السَّيْف: طَرَفُه المُتَطَرِّفُ الذي يُضْرَبُ به ، وقيل حَدُّه. ينظر: لسان العرب . مادة (ذبب).

←←←

يُشبِّه الهيئة الحاصِلة لانتشار الضّوء واللمعان وتفرُّقهما بين ذؤابة السَّيف وذُبابته، بالهِيئة الحَاصلة لانتشار الصَّلابة أيضًا وتفرُّقها بين الفتيان وذي الشَّيب على السَّواء، فأمَّا الفِتيان فصلابتهم ذاتيَّة، وأمَّا ذُو الشَّيب فصلابتهم في نصبهم.

فالنَّاظر يبين له كيف استطاع الشَّاعر بهذا الضَّرب مِن التَّشبيه أن يقرِّر معنى الانتشار والتفرُّق مِن خلال هذه الصُّورة التي أحسب أنَّه جمَعها مِن طرفين مُتباعدين.

****

وأمَّا قوله في سياق الحديث عن نفسه:

قَلَيْتُ الصَّبَا وَهَجَرْتُ الْغَوانيِ ∴ وَسَلَّمْتُ مُعْتَرفاً لِلزَّمَانِ

وَأَعْنَقْتُ مُنْطَلِقاً فِي الْقِيَا ∴ دِ بَعْدَ الجِمَاحِ وَجَذْبِ الْعَنَانِ

كَذَاكَ الْفَتَى وصَرُوفُ الزَّما ∴ نِ يُحْدِثْنَ شَأْناً لَهُ بَعْدَ شَانِ

رَأَيْتُ الحَيَاةَ وَلَذَّاتِهَا ∴ مُعَلَّقَةً بِلَيَالٍ فَوَانِ[1]

→→→

صليبا: الصَّلابَةُ ضدُّ اللِّين ، صَلُبَ الشيءُ صَلابَةً فهو صَلِيبٌ . . والصُّلَّبُ والصُّلَّبِيُّ والصُّلَّبَة والصُّلَّبِيَّة حجارة المِسَنِّ. ينظر: لسان العرب . مادة (صلب).

صلب النصاب: المَنْصِبُ الأَصلُ ، وكذلك النِّصابُ ، يقال: فلانٌ يَرْجِعُ إلى نِصاب صِدْقٍ ومَنْصِبِ صِدْقٍ ، وأَصْلُه مَنْبِتُه ومَحْتِدُه. ينظر: لسان العرب . مادة (نصب).

(١) **قليت الصبا:** الصَّبْوَة جَهْلَة الفُتُوَّةِ واللَّهْوِ من الغَزَل ، ومنه التَّصابي والصِّبا. ينظر: لسان العرب . مادة (صبا).

الغواني: الشَّوابُّ اللَّواتي يُعْجِبْنَ الرجالَ ، ويُعْجِبُهُنَّ الشُّبَّانُ ، وقيل: الغانية الجاريَةُ الحَسْناءُ ذاتَ زوْج كانت أَو غيرَ ذاتِ زَوْج ، سميِّتْ غانِيَة ؛ لأنها غَنِيَتْ بحُسْنِها عن الزينَة. ينظر: لسان العرب . مادة (غنا).

أعنقت: العَنَق مِن السير المنبسط. ينظر: لسان العرب . مادة (عنق).

الجماح: جَمَحَ الفرسُ بصاحبه جَمْحاً وجِماحاً ذهب يجري جرياً غالباً واعْتَزَّ فارسَه . . . وجَمَحَتِ السفينة تَجْمَحُ جُمُوحاً تَرَكَتْ قَصْدَها فلم يَضْبِطْها الملاَّحون. ينظر: لسان العرب . مادة (جمح).

←←←

فيُشبِّه الهيئة الحاصِلة لتبدُّل أحوال الشَّاعر، مِن حال أسوأ في طريق اللَّهو والخلاعة، إلى حال أحسَن وأكرَم، عُنوانها الجِدّ والاجتهاد في طلَب المَعالي، بهيئة حال صُروف الزَّمان المُتقلّبة بالإنْسان وعدم ثباتها معه على حال واحدة، فلا يُسْر الزَّمان يدوم ولا عُسْره.

صُورة المُشبَّه به هي ذاتها صورة المُشبَّه، ومِن ثَمَّ فقد استطاع الشَّاعر هنا . وهذا باد . مِن خلال تصدير المُشبَّه به بلفظ (كذاك) تقرير معنى التبدُّل والتغيير وتثبيته في أوضح مرأى.

وفي آخر القصيدة يفتخر الشَّاعر باتِّصافه بخُلق الوفاء الكريم، وكون الوفاء فضيلة جُبل عليها منذ الصِّغر، عند قوله:

أُحِبُّ الْوَفَاءَ إذا مَا وَعَدْ ∴ تُ وَأَلاَّ يُعَابَ بَمطْلٍ ضَمَانِي

كَذلِكَ عَوَّدَنِي وَالِدَايَ ∴ فَعَوَّدْتُ نَفْسِي الذَّيِ عَوَّدانِي (١)

وفيه يُقرِّر معنى الوفاء ويثبته، فيُشبِّه الهيئة الحاصِلة لحبّ الشَّاعر لخلُق الوفاء في الوعْد، وبالغ حرصه على تجنُّب المَطْل المَذموم، بالهيئة الحاصِلة لكون الوفاء صِفة قد تأصَّلت في ذات الشَّاعر، بسبب قيام والديه على تربيته عليها وعلى مكارم الأخلاق الأخرى حقّ قيام، مع حرصه الذَّاتيّ على تعويد نفسه على طاعة والديه وقبول توجيههما، وفي هذا مِن تِبيان تأصُّل خُلُق الوفاء فيه ما لا يخْفَى.

هذا، ولا شكَّ أنَّ لهذه الطَّريقة مِن التَّشبيه مِن الحُسْن، وجَودة السَّبك، ودُخول التَّشبيه فيها على النَّفس دخول ما لا يطلب الإذن، ومن ثمَّ فهو مأنوس مُنتظر؛ إذ له في كلّ نفْس مكان فسيح (١).

←←←

العنان: اللجام السير الذي تُمسَك به الدابة ، والجمع أَعِنَّة. ينظر: لسان العرب . مادة (عنن).

بليال فوان: الفَناء نَقِيض البقاء. ينظر: لسان العرب . مادة (فني).

(١) بمطْل ضَماني: المَطْلُ: التسويف والمُدافَعة بالعِدَة والدَّيْن. ينظر: لسان العرب . مادة (مطل).

خاتِمَة البحث :

الحَمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المُرسَلين، سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصَحْبه أجمعين، ومَن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدِّين. **أمَّا بعد :**

ففي هذه السُّطور تقرِّر الدِّراسة ما يأتي مِن نتائِج:

→→→

(١) هذا ،وقد رصدت هذه الدِّراسة عدَّة تشبيهات أُخرى للتَّشبيه المُركَّب لم تضمّها سِمة أُسلوبية واحدة ،وهي قوله:

هُوَ الْحُر أَخْلاقاً وَبِرّاً وشِيمةً وَعَقْلاً، وَخَيْرُ الْقَوْمِ مَنْ أُوتِىَ الْعَقْلاَ
تَراه طَلِيقًا وَجْهَه مُتَهَلِّلا كَأَنَّ صَقِيلاً مِنْ عَوارِضِهِ يُجْلَى

ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ١٩٠ .

وقوله:

خِلتُها فِي المُعَصْفَرات القَوَانِي وَرْدَةً فِي شَقَائِقِ النُّعْمَانِ
أَنْتِ تُفَاحَتِي وَفِيكِ مَعَ التُّفَا حِ رُمَانَتَانِ فِي غُصْنِ بَانِ

ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٢٨

وقوله في وصف تعريش الكرم:

مِن ابْنَةِ كَرْمٍ تَظَلُّ النَّبِيـ طُ تَعْمَلُ مِنْهُ عَرِيشًا عَرِيشَا
إِذَا أَنْتَ قَابَلْتَهُ خِلْتَهُ مَطَارِفَ خُضْرٍ كُسِينَ النُّقُوشَا

ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ١٦٦ .

وقوله في سياق رثاء ابنه أحمد:

وَالمَوتُ يُغْشِي بَيَاضَ سُنَّتِهِ كَالشَّمْسِ يُغْشِي ضِيَاءَهَا الدَّجَنُ
وَلَّى حَبِيبًا يَتْلُو أَخَاهُ كَمَا يَومًا تُدَنَّى لِلمَنْحَرِ البُدُنُ
كَأنّمَا الدَّهْرُ فِي تَحَامُلِهِ عَلَيّ لِي عِنْدَ صَرْفِهِ إِحَنُ

ينظر: شعر إبراهيم بن المهدي ص ٢٢٠، ٢٢٢ .

أولًا: التَّشبيه المُركَّب مِن أرفع صُور التَّشبيهات، وأدقّها، وأزخرها بالأسرار واللمحات، وللمُتفرِّس لها لذَّة لا تُوصف؛ لأنَّ التَّشبيه المُركَّب عَصِيّ لا يبوح بأسراره حتَّى يستولي مِن المُتلقِّي على كلّ إدراكه وشُعوره، ومع كَون هذا الضَّرب مِن التَّشبيه جَديرا بالنَّظر والعناية في أيّ بيان، شعرًا كان أم نثرًا، فهو في شِعْر الخَليفة المُغنِّي (إبراهيم بن المَهديّ) أجدر وأولى؛ لأنَّ كثرته عنده تمثل سِمة أسلوبية له في شعره .

ثانيًا: طُول نَفَس الشَّاعر وملكته على السَّبك، وفرط اقتداره علَى استدعاء المعاني أنتج هذه الكثرة مِن التَّشبيهات المُركَّبَة، وقد وُفِّق الشَّاعِر أيَّما توفيق في اختياره لقالب التَّشبيه المُركَّب خاصَّة، وهو قالب يبرز ثراء النَّفس وغناها في أبين مَرأى.

ثالثا: لكلّ صاحب بيان قوالبه الخاصَّة التي يستطيع أن ينقل فيها تجاربه الذَّاتية، ويصوِّر فيها أحاسيسه وانفعالاته، ويجسِّد بها كذلك خَيالاته، حتَّى تستحيل واقعًا مَلموسا، وقد تحسُن هذه القوالب مع مُبين، ولا تحْسُن هي ذاتها مَع مُبين آخر .

رابعًا: وقفت الدِّراسة على سِمات عدّة للتَّشبيهات المُركَّبة في شِعر إبراهيم بن المهديّ، وهي كالآتي:

الأولى: بِناء التَّشبيه المُرَكَّب على التتابُع .

وقد اتَّسَم التتابُع ببناء الشَّاعر له من مُفرَدات مَحْسُوسة مُتناغمة أيَّما تناغُم، وهذا أبرَزَ بالغ تماسُكها وترابُطها، وقد كانت الطَّبيعة منزعه الرَّئيس لتلك التَّشبيهات .

كما كان الترقِّي في التَّصوير مِن الأدنى إلى الأعلى، وبِناء تلك التَّشبيهات في صُورة التَّشبيه المُؤكَّد الذي يكون في صُورة المَصْدر، مِن أبرز سِمَات التتابُع التي سجَّلتها هذه الدِّراسة، وأظهرها.

الثَّانية: بِناء مَعْنى صُورة المُشبَّه به مِن أحداث ماضية.

وقد اتَّسمت تلك التَّشبيهات بسُهولة السَّبك وحُسْنه، مع تحْقيق الانسِجام والتناغُم التامّ بين الهيئتين: هيئة الحاضر، وهيئة الماضي البعيد.

الثالثة: وَضْع التَّشبيهات في مَوضِع المَثَل، وهو قالَب لا يُضارَع في توضِيح المَعاني أتمّ توضيح، ومِن شأنه كذلك أن يكتب للبيان الخُلود في الأذهان.

الرَّابعة: الجمع بين المتباينات وهو سمت يُؤكِّد على فرْط حذق الشَّاعر وحسّه القويّ على التأليف بين المَعاني، وبالغ قُدرته على إيجاد أوجه التَّشابه والوِئام بين المُتباعِدات، وهذا لا يكون لكلّ أحد مِن أصْحاب البَيان .

وسَمْت الجَمْع بين المُتباينات في شِعر إبراهيم بن المَهديّ في مرتبة التوسُّط في البُعد، فلَم يجْمع الشَّاعر بين أمرين بعيدَي التبايُن، ومِن ثمَّ يُمكن القول بأنَّ هذا السَّمت لم يكن الأبرز للشَّاعر.

الخامسة: التَّقرير والتَّثبيت، ببناء صُورة المُشبَّه به بعد لَفظ (كذاك أو كذلك).

واتَّسمت تلك التَّشبيهات: بالطَّرافة والسِّحر والسَّلاسة، إذ يبدو حال الشَّاعر فيها حَال مَن يقُصّ عليك قصَّة قصيرة أو حكاية سَريعة، في نهايتها يأتي المُشبَّه به فيكتمل بِناء ما بدأه على أحسَن ما يكون البِناء، ويظهر المُشبَّه به فجأة، وكأنَّه عرَض مِن دون قَصْد أو تعمُّد .

هذا، والحَمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات، وأسألُه سُبحانه القَبول وغُفران الزَّلل، وأن يجعل جزاء هذه الدِّراسة في ميزان والدي . رَحِمَه الله رحمة واسعة، وأحسن إليه، وموتى المُسلمين أجْمعين.

فِهْرس المصَادر والمراجِع بعد القُرآن الكَريم

ابن الرُّومي . حياته مِن شعره . لعبَّاس محمود العقَّاد . ط: مُؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة . القاهرة . مدينة نصر . مِن دون تاريخ .

أسَاس البلاغة للزَّمخشري . تحقيق: محمد باسِل عيُون السُّود . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م.

أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني . قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر . ط: مطبعة المدني بالقاهرة ودار مدني بجدة . من دون تاريخ.

الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دُريد . تحقيق وشرح: عبد السَّلام محمد هارون . ط: دار الجيل . بيروت . ط: أولى . ١٤١١ هـ . ١٩٩١ م.

أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق لأبي بكر الصُّولي . نشره: ج. هيورث. دن . مطبعة الصاوي . ط: أولى . ١٣٥٥ هـ . ١٩٣٦ م.

البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي . تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . ط: أولى . ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١ م.

البرهان في علوم القرآن للزركشي . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . ط: دار المعرفة . بيروت . ١٣٩١ هـ.

بلاغة الامتداد بالاعتراض في شعر الخليفة المغني إبراهيم بن المهدي . بين السياق والدلالة . للباحث: د / علي محمود عباس . مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط . مجلة علمية متخصصة محكَّمة . العدد الأربعون . ١٤٤٢ هـ . ٢٠٢١ م.

تاريخ بغداد أو مدينة السلام للخطيب البغدادي . تح: مصطفى عبد القادر عطا . ط: دار الكتب العلمية . بيروت.

التصوير البياني . دراسة تحليلية لمسائل البيان د مُحمَّد محمد أبو موسى . ط: مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة السادسة . ٢٠٠٦ م .

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ط: المكتبة العصرية . صيدا . بيروت . ط: أولى . ١٤٢٤ هـ . ٢٠٠٣ م.

دراسة في البلاغة والشِّعر د محمد مُحمد أبو موسى . ط: مكتبة وهبة . القاهرة . عابدين . الطبعة الأولى . ١٤١١هـ . ١٩٩١ م .

ديوان امريء القيس . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . ط: دار المعارف . القاهرة . ط: خامسة

. من دون تاريخ.
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي . ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت . من دون تاريخ.
الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني . تحقيق: د / إبراهيم السَّامُرائي . ط: مكتبة المنار . الأردن . الزرقاء . ط: ثانية . ١٤٠٦ هـ . ١٩٨٥ م.
السَّبك النصي بالتكرار في شعر الخليفة إبراهيم بن المهدي (ت ٢٢٤) . البائية في رثاء ابنه نموذجا . أ. د/ سلامة دردير محمد علي . حولية كلية اللغة العربية بجرجا . العدد الثاني والعشرون . الجزء: الخامس . ٢٠١٨ م.
سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي . تح: شعيب الأرناؤط ، و / محمد نعيم العرقسوسي . ط: مؤسسة الرسالة . ط: أولى . ١٤٠٢ هـ . ١٩٨٢ م .
شعر إبراهيم بن المهدي (الخليفة المغني) وأخباره ونثره . جمع وتحقيق ودراسة: د / محمد مصطفى أبو شوارب . ط: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر . ط: أولى . ٢٠٠٧ م.
العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسيّ . تحقيق: مفيد محمد قميحة . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٠٤ هـ . ١٩٨٣ م .
العُمْدة في محاسِن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق . تح: محمد محيي الدين عبد الحميد . ط: دار الجيل . بيروت . من دون تاريخ .
في ظلال القرآن لسيد قطب . ط: دار الشروق . بيروت . ١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٣ م .
قراءة في الأدب القديم د محمد محمد أبو موسى . ط: مكتبة وهبة . القاهرة . ط: الرابعة . ١٤٣٣هـ . ٢٠١٢ م .
الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزَّمخشري . ط: دار الكتاب العربي . بيروت . ١٤٠٧ هـ .
لسان العرب لمحمد بن مُكرَم بن منظور الأفريقي . ط: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد . السعودية . ١٤٣١ هـ . ٢٠١٠ م.
مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني . تح: محمد محيي الدين عبد الحميد . ط: دار المعرفة . بيروت . من دون تاريخ .
المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة الدينوري . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٠٥ هـ . ١٩٨٤ م.

المعجم الوسيط . ط: مكتبة الشروق الدولية . ط: رابعة . ١٤٢٥ هـ . ٢٠٠٤ م.
مُفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني . تحقيق: صفوان عدنان داوودي . ط: دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت . ط: رابعة . ١٤٣٠ هـ . ٢٠٠٩ م.
المُفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام . د / جواد علي ط: جامعة بغداد . ط: ثانية . ١٤١٣هـ . ١٩٩٣ م.
نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب النويري . تحقيق: مفيد محمد قميحة . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٢٤ هـ . ٢٠٠٤ م .
الوافي بالوفَيَات لصلاح الدين الصفدي . تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى . . ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . ط: أولى . ١٤٢٠ هـ . ٢٠٠٠ م.